

أحمد رمضان

دار ليلى كيان كورب

انتحار فاشل

أحمد رمضان

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

الكتاب:
أنتحار فاشل
المؤلف:
أحمد رمضان
★★★
الغلاف:
محمد محمود
★★★
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
www. darlila. com الموقع الرسمي: mail@darlila. com البريد الإليكتروني:

أحمد رمضان

أنتحار فاشل

دار ليلى كيان كورب
للنشر والتوزيع

المجرم

عدت من عملى متأخراً .. أشتريت بعض الأغـراض قبـل أن أقـترب مـن الحارة التى أسكن فيها .. تفاجئت بـسيارة شـرطة تـسد مـدخل الحـارة .. أنتشر حولها بعض العساكر لمنع الأهالى من التقدم .. خلـف الحـاجز الـذى صنعه الجنود وقف كثير من الأهالى يتطلعـون بفـضول و تـساؤل .. حاولـت المرور موضحاً لهم أنى من قاطنى الحارة و لكنهم منعونى بحزم .. قـالوا أن الأمر لن يستغرق سوى دقائق .. لم أجد مفراً من الأندساس بين الـواقفين .. تلك ليست أول مرة يحدث فيها هذا الموقف .. يتكرر كل فترة حـين يـأتون للقبض على شخص ما .. و عادة لا يستغرق الأمر وقتاً

قتلنى الفضول كما قتل القطة من قبل لمعرفة هدفهم هذه المـرة .. خاصـة أن معظم السكان لم يكونوا على علم بالضحية – أو المجرم – الـذين يـسعون خلفه .. و العساكر البـسطاء لم يكـن لـديهم أدنـى فكـرة ، و لم نـستطع أن نستخرج منهم أى معلومة حتى بعد أن منحناهم بعـض الـسجائر و تقربنـا منهم فى الكلام

من المؤكد أنهم جاءوا للقبض على زاهر السياب .. ورث عن أبيه تجـارة المخدرات و لكنه لم يرث عنه حرصه أو ذكائه .. لم تستطع الشرطة القـبض على أبيه يوماً رغم نشاطه المعروف الـذى أمتـد لـسنوات .. زاهـر مغـرور و

جرئ أكثر من اللازم .. والده كان يعمل فى الخفاء و بحرص أكبر .. على عكس أبيه يتباهى زاهر بنفوذه بعد أن بسط سيطرته على المنطقة .. دخل فى صراعات كثيرة .. أكتسب العديد من الأعداء .. بعضهم من ذوى النفوذ .. من المؤكد أن أحدهم وشى به .. تمنيت أن يكون هو .. على الأقل تتخلص الحارة من أجرامه و نفوذ أتباعه .. و لكن صعب أن يكون هو .. رغم غروره و أخطائه الكثيرة لكنه ليس بتلك السذاجة ليخزن بضاعته فى منزله أو دكانه فى الحارة .. أعلم بالتأكيد أنه يحتفظ بها فى مخازن بعيدة و يجيد تصريفها بعيداً عن مكان أقامته ، و عن محل الأقمشة الكبير الذى يتخذه كستار له .. كما أنه مسافر منذ ثلاثة أيام .. أزدادت حيرتى .. من يكون أذن

سمعت أسم عادل يسرى همساً بين الناس .. هل جاءوا للقبض على عادل .. أعترف أنى أحسست بقليل من الشماتة .. يمتلك عادل محل أجهزة كهربائية فى نهاية الحارة .. بدأ طريقه الخاص بشراء الأجهزة المسروقة ثم أعادة بيعها .. بعدها أصبح يتاجر فى كل شئ .. مسروق طبعاً .. ذهب .. ساعات .. هواتف نقالة .. أدوات زينة .. ذمته أصبحت تتسع لأى بضاعة مجهولة المصدر .. شهرته بدأت بالتعرف على عزمى .. أشهر هجام فى المنطقة و أكثرهم خطورة .. يشترى منه كل ما تطوله يده فى مغامراته الليلية .. ثم بدأ يوسع علاقاته .. تعرف على مزيد ممن أشتهروا

بالقلوب الجريئة و الأيدى الطويلة .. من النادر أن تجد لص منازل أو نشال فى المنطقة لا يعرف عادل .. أحتفظ بالمحل القديم كما هو دون تغيير درءاً للأنظار و لم يغادر الحارة .. قام بتوسعة بيته القديم و صرف عليه الكثير .. من دخل بيته يحكى عن فخامته من الداخل .. و أولاده نقلهم من المدرسة القريبة المتهالكة إلى أرقى المدارس الخاصة .. يحتفظ بأمواله كلها داخل بيته و لا يضعها بالبنك .. وقفت على أطراف أصابع قدمى و توجهت ببصرى نحو محله فى آخر الحارة .. لاحظت أنه مفتوح .. رأيت بعض العساكر متمركزون فى وسط الحارة بعيداً عنه .. من المستحيل أن يكون هو .. تأكدت ظنونى بعد أن ظهر بعد قليل ليقف أمام محله يستطلع الأمر.. سحب كرسياً من الداخل و جلس أمام محله بهدوء .. هززت رأسى فى أسف .. شعرت بقليل من خيبة الأمل

عصرت ذهنى .. بحثت كثيراً فى تاريخ حارتى الأسود .. أستعرضت الأسماء فقفز إلى ذهنى أسم منها .. أعلم أن لو تفتح عمل الشيطان .. و لكن لو كان هو .. لأقمت حفلاً فى الحارة .. عزمى المجاهد بالتأكيد .. أعتقد أنى لست الوحيد الذى سيحتفل بالتخلص منه .. لم يجتمع أهل الحارة منذ نشأتها على شئ أكثر من أجماعهم على بغض عزمى المجاهد و تمنى الخلاص منه .. أجرامه فاق كل حدود .. مسجل خطر .. دخل السجن عدة مرات و لكنه كان يخرج منه سريعاً .. آخر مرة دخل السجن لشهرين ..

ظننا أننا تخلصنا منه .. وزع بعض الأهالى الشربات أبتهاجاً بالمناسبة .. من سوء حظنا أن الأنتخابات كانت قريبة .. أخلوا سبيله قبلها بأيام .. نجح مرشح الحكومة الذى سانده بالطبع و أختفى منافسه بعدها بفترة .. عزمى مجرم صعب أن تصنفه ، و هنا مكمن خطورته .. لو أستطاع الأكتفاء بنشاط واحد ربما عشنا معه بسلام .. متعدد المواهب حقاً .. هجام .. بلطجى .. نصاب .. موزع مخدرات .. قاتل .. موسوعة أجرام حية زاخرة تعيش و تتنفس بيننا .. بدأ حياته بالسطو على المنازل .. و عندما بدأت أعصابه تخذله بعد أن عرف طريق الأدمان .. بحث عن طريق أسهل .. الخطف .. أشترى دراجة و بدأ فى أستخدامها هو و أحد أعوانه فى خطف حقائب السيدات و أحياناً مصاغهم .. ثم تعلم حمل السلاح و بدأ الخروج ليلاً للبحث عن ضحية منكوبة و تهديدها لأفراغه من كل ثمين يحمله .. أفراطه فى المخدرات دفعه للمتاجرة بها أحياناً .. ثم القيام بدور البلطجى لمصلحة من يدفع له أكثر .. راقت له اللعبة ففرض أتاوة شهرية على كل أصحاب المحلات .. ثم أصحاب البيوت .. جمع عصابة من الأوباش مثله فلم يستطع أهل الحارة مواجهته .. يستخدم أسلحته بخبرة جراح ماهر .. من يعارضه يحمل تذكاراً خالداً فى وجهه أو جسمه حتى لا ينساه .. و لا بأس من وقت لآخر بجريمة قتل حتى يذكر الناس بسطوته .. دعوت المولى أن يكون هو حقاً .. من المؤكد أن كل هذه القوة جاءت للقبض عليه أحتياطاً لخطورته ..

أسترحت لهذا الخاطر للحظات .. حتى تفاجئت بعزمى نفسه يقف ورائـى .. لو تطلع إلى للحظة لرأى آثـار الدهـشة بوضـوح علـى وجهـى .. لم يفعـل لحسن حظى .. أندس بين الواقفين ببساطة يسأل عن الخبر

شـلت رؤيــة عزمــى تفكـيرى للحظـات .. عـدت لأسـتعراض الـصور و مراجعة الأحتمالات بحيرة أكبر .. هل جـاءوا للقـبض علـى أمـين صـاحب المخبز الوحيد فى الحارة الـذى يقـوم بتهريـب الـدقيق المـدعم تحـت أعـين الجميع لبيعه فى السوق السوداء .. أم محسن الميكانيكى هو الهدف بعـد أن أشتكاه أحد زبائنه .. كلنا نعرف مهارتـه فـى سـرقة قطـع الغيـار الأصـلية للسيارات التى يقوم بأصلاحها و أستبدالها بأخرى تجارية رخيصة .. هـل الدور على زيزى الراقصة بعد أن فاحت رائحة زبائن آخـر الليـل لـديها .. ربما عباس صاحب القهوة الذى يوصد أبوابها من الـداخل لـيلاً لتتحـول إلى غرزة لتدخين الحشيش .. أحسست بدوار .. بدأت يـدى تـؤلمنى مـن حمـل الأغراض التى أشتريتها لفترة طويلة .. اللعنـة .. أعيـانى الـتفكير .. لمـاذا أشغل نفسى كثيراً بمعرفة الأسم .. يد العدالة ستطول أحـد اليـوم علـى كـل حال و ستتخلص الحارة من أحد أوباش قاطنيها .. و هذا هو مـا يهمنـى .. صحيح أنى صدمت لعدم القبض على عزمى .. و لكـن لكـل كلـب يومـه .. و ربما أسترحنا ممن هو أخطر منه

لحظات صمت مرت ثقيلة على الجميع قبل أن نرى حركة فى الشارع ..

أعتدل العساكر المرابضون فى وسط الحـارة .. هـبط بعـض الجنـود مـن أحـد البيوت هناك .. أثنان منهم يمسكون شخص ما بأحكـام .. لم نتعـرف علـى ملامحه من الأجساد التى كانت تعيق رؤيتنا و لكنهم كانوا يمسكونه بشكل يوحي بمـدى خطورتـه .. بعـدها بثـوان هـبط شـخص ثـان و ثالـث بـنفس الطريقة .. قبضوا على ثلاثـة أذن .. تمنيـت أن يقبـضوا علـى مجـرم واحـد فقبضوا على ثلاثة دفعة واحدة .. أبتهجت .. أقتربوا منا .. بعد عدة أمتـار بان ملامح المقبوض عليه بوضوح .. تحولت نظـرات التـساؤل إلى دهـشة ثـم سريعاً إلى أستنكار .. وسط العساكر كان يمشى محمود بأنكسار .. من المؤكـد أن هناك خطأ ما .. محمود أبن الحاج حسين موظف الكهرباء .. الكل يشهد بأخلاقه و سمعته الطيبة .. أحد القلائل الذين يـسكنون الحـارة و يتمتعـون بأحترام و ثقة الجميع .. موظف بسيط فى الحكومة أحـسن تربيـة أولاده و علمهم رغم متاعب الحياة .. لا نذكره إلا بالخير هـو و أسـرته البـسيطة .. محمود يدرس فى كلية الحقوق .. شاب ملتزم كما نعرفـه .. لم يقـدم يومـاً على فعل خاطئ أو أرتكاب حماقـة .. نعلـم أنـه موهـوب و يكتـب مقـالات أحياناً فى بعض الصحف الصغيرة .. لمحنا الحاج حسين يخرج مـن المنـزل خلف أبنه يمنعه الجنود من الوصول إليه .. ثم والدته تلحق بزوجها خارج البيت رغم مرضها وهى تبكى أبنها الوحيد .. بسرعة حشروهم فى مـؤخرة السيارة .. شق العساكر طريقاً بين الناس يسمح بمرور السيارة .. لم نعلم إلا

لاحقاً بعدها بأيام أنه متهم بالأخلال بالأمن العام هو و زملائه .. شارك فى مظاهرة داخل الجامعة و كتب كلاماً جارحاً فى أحد مقالاته .. هكذا قال لنا محاميه .. و لكنه لم يخبرنا لمن كان الكلام جارحاً .. أنتهزوا فرصة وجوده فى منزله هو و أثنان من أصدقائه المشاركين فى المظاهرات للقبض عليهم بعد أن أبلغ عنهم أحد المخبرين المتواجدين بصفة دائمة فى الحارة .. أشعر بمرارة كلما تذكرت هذا المشهد يومها .. سيارة الشرطة تشق طريقها بسرعة بين الناس .. عزمى الهجام يقف خلف سيارة الشرطة المنطلقة بقوة .. يقلب كفيه فى تعجب .. يتطلع إلى محمود المنزوى فى ركن منها هو و زملائه .. يعلق بتأثر صائحاً بحكمته الخالدة : صحيح .. الحرام عمره ما يدوم

أستعداد

لاحظ أنها نامت أكثر من المعتاد .. لفت الغطاء على وجهها بينما أحكمت وضع الوسادة فوق رأسها كالعادة فلم يظهر إلا القليل من جسدها الضئيل .. تردد للحظات أن يوقظها قبل موعد تناولها للحقنة اليومية التى أوصى بها الطبيب .. ثم قرر أن يتركها لخمس دقائق أخرى فإن لم تنهض من تلقاء نفسها بادر هو بأيقاظها

ذهب لأعداد كوب من قهوته الصباحية المعتادة .. تناوله ببطء و هو يشاهد النشرة .. سرح مع الأخبار بعد أن أرتفع ضغط دمه كالعادة من مشاهدتها .. عادة سيئة يقسم مراراً أن يقلع عنها و لكنه لا يفعل .. أنتبه إلى أن مهلة الخمس دقائق طالت لتصبح ثلث ساعة .. نهض بسرعة و أتجه إلى غرفتها .. وجد زوجته كما هى لم تتحرك و كأنها أتحدت مع السرير فى كيان واحد مشترك .. تذكر أنها سهرت بالأمس تتألم من نوبة سعال أنتباتها و نامت بصعوبة .. قرر أن يمنحها مهلة ثانية .. مهلة أخيرة ثم يوقظها قبل خروجه لصرف المعاش

دخل إلى حجرة نومهما .. منذ تزوج الأبناء و هى لا تنام فيها إلا نادراً .. تفضل أن تنام فى غرفة أبنها الأكبر .. دائماً تحكم الغطاء حول نفسها بعد أن تقوم بتعديل صورة أبناءها التى تضعها على المنضدة الصغيرة بجوار

السرير لتصبح فى مواجهتها .. تحججت من فترة طويلة أن حجرة نومهما " بحرى " و جسدها الضعيف لم يعد يتحمل برودتها فى الشتاء خاصة بعد كوكتيل الامراض الذى أجتاح جسدها من سنوات .. ضغط .. سكر .. و تصلب شرايين أجرت معه جراحة من شهر مضى ما زالت تتعافى من آثارها .. هزل جسمها و ضعفت قواها و لكنها بعناد تصر أن تقوم بدورها .. يعلم أنها تحن لأبناءها الذى تزوج آخرهم من شهران و فارق عشها بشكل نهائى .. مع المرض و فراق الأبناء زادت عصبيتها فى الفترة الأخيرة .. تذكر المشاجرة التى حدثت بينهما أمس .. و لكن الغريب أنه لم يعد يتذكر السبب .. سبب مختلف كل مرة و ينتهى الشجار سريعاً .. تثور عليه ثم تفاجئه بعدها بلحظات و هى تحضر كوب الماء له و تذكره بتناول دوائه اليومى .. يعانى هو أيضاً من ضغط الدم و لكن ما زالت معاناته أقل بكثير مقارنة بمعاناتها

أمس أجهدت نفسها .. دعت الأولاد على الغداء و صممت أن تقوم و تشرف على كل شئ بنفسها رغم تحذيرات الطبيب .. كانت عصبية بشكل كبير .. هكذا دائماً تزداد عصبيتها عندما تدعو أحد إلى البيت .. ترغب أن يبدو كل شئ فى أبهى صورة .. بعد أنصراف الأبناء أضطر للقيام بمهام التنظيف بعد أن شعرت بألم فى قدميها لم تستطع معه أن تؤدى أى عمل .. رغم أنه نام قبلها و لكنه أدرك أنها لم تنم إلا قبل الفجر بقليل .. أعتادت

أن تستيقظ مبكراً مهما سهرت فما الذى أخرها هكذا .. أنتابه خاطر مزعج تسلل إلى عقله بخبث .. أقترب من سريرها فلم يلحظ أى حركة تنفس .. قال في سره : معقول يكون حصل لها حاجة .. دى تبقى كارثة

غادر الحجرة بعد أن أقلقه الخاطر .. أتجه إلى الصالة و جلس على الأريكة .. يريد بعض الوقت للتفكير فقدرته على أتخاذ رد فعل سريع فى المواقف الطارئة لم تعد كالسابق .. لو حدث شئ ما لها بالفعل .. كيف سيتصرف ؟.. سيحزن على شريكة عمره بالتأكيد و لكنه سيتمالك نفسه .. سيطلب الأسعاف فوراً .. و ربما يستعين ببعض الجيران .. عليه أن يبدو هادئاً أمام الجميع رغم الكارثة .. رزيناً كعادته و كشخص هذبته السنين من فترة و أختبرته بكل أشكال المصائب مراراً .. ماذا عن الأولاد .. من المؤكد أنه سيتصل بكل واحد منهم و لكن يجب أن يقوم بالأمر بمنتهى الحكمة .. سيتصل بالأبن الأكبر أولاً و يطلعه على ما حدث بهدوء وبشكل مباشر.. سيحدثه بتعقل كرجل مسئول يعتمد عليه و سيخفف هذا بالتأكيد من وقع الصدمة .. أما الأبن الأصغر فمن المؤكد أنه فى العمل الآن .. سيتصل بزوجته و هى ستتولى المهمة عنه .. يعلم أنها أقدر منه على نقل الخبر إليه بطريقتها الخاصة .. المشكله فى أبنته .. عليه أن يكون هادئاً معها للغاية فهو يدرك أنها عاطفية و شخصيتها أنفعالية إلى أبعد حد مثل أمها .. سيبلغها الأمر بالتدريج .. أمك مريضة .. الطبيب هنا .. تريد رؤيتك ..

فكر ماذا سيفعل أمام أبنائه عندما يتوافدون إلى المنـزل فزعاً .. يعلم مدى تعلقهم بأمهم .. يتخيل تأثير الموقف عليهم .. يراهم بعين خياله مصدومين مما حدث .. عيونهم كساها اللون الأحمر من البكاء و أطرافهم ترتجف من وقع الصدمة .. كبار هم و لكنهم ما زالوا صغاراً أمام المصائب و ربما أنهار أحدهم تحت وطأتها .. يجب أن يبدو أمامهم رابط الجأش مهما كان حزنه و أله حتى يهدئ من روعهم .. عليه أن يظهر كقدوة لهم لو حدث الأمر.. مثل هذه المواقف تحتاج إلى ثبات بالتأكيد .. خبراتهم بالمصائب قليلة بينما يمتلك هو رصيد من الخبرات يسعفه .. سيظل يواسيهم حتى يخفف عنهم ألم الفراق الصعب و هو - عكس أبناؤه – رجل عسكرى يتمتع بثبات أنفعالى عالى سيخدمه .. فكر لو حدث الأمر .. سيكون مستعداً للتعامل معه بالتأكيد

مرت نصف ساعة أخرى و هو ما زال فى مكانه يفكر .. أنتبه و طرد تلك الخواطر السوداء من رأسه .. أستغفر و أستعوذ من شيطان يعبث بعقله و تفكيره .. دخل غرفة أبنه الأكبر ليوقظها بلطف فلاحظ أن زوجته كما هى لم تتحرك .. خطا للداخل فشعر بشئ غامض داخل الغرفة .. شئ لا يراه و لكنه أقلقه بشدة .. أقترب من سرير زوجته .. ناداها فلم ترد عليه .. نادى عليها أكثر من مرة فلم ترد .. مد يده و هز جسدها برفق بلا أستجابة منها .. سحب الغطاء و هزها بعنف دون نتيجة .. تحسس

جسدها .. بارد على غير العادة .. فتح عينيها فحدق فى فراغ بـلا حيـاة .. أحتضن يدها و أحكم قبضته على شرايين معصمها فلم يشعر بنـبض الحيـاة يسرى فيها .. أفلت ذراعها فتهاوت بلا مقاومة

كانت بالفعل قد ماتت

كل ما يتذكره الابن الأكبر أن أباه أتصل به و هو يصرخ بهلع قائلاً له أن أمه ماتت .. أما أبنته فتقول أنه أتصل بها و هو يبكى و يهذى و لم تـستطع أن تستوعب شيئاً من كلامه سوى أسم أمها الذى ظل يردده عـدة مـرات بـلا وعى .. يقول الجيران أنهم سمعوا صرخة فزع عالية و لأول مرة تقع أعينهم على العجوز الوقور يرتجف بهذا الشكل .. عندما أتى الأولاد كان قابعاً أمام جثمانها يحملق فيها بلا وعـى و جـسده ينـتفض .. ظـل الجميـع لـساعات يحاولون تهدئته بلا فائدة حتى أنهارفاقداً وعيه.. و طوال العزاء لم يستطع الخروج أو التحدث .. حبس نفسه داخل غرفته مكتفيـاً بالتحـديق بـذهول نحو السقف ومستمراً بالهذيان بكلمات غـير مفهومـة .. أضـطروا لأحـضار طبيب للكشف عليه بعد أن ساءت حالته فأخبرهم أنه يمـر بأزمـة عـصبية شديدة فسرها بحالة الوفاة الصادمة لزوجته التى لم يكـن مـستعداً لهـا .. و رغم وجود أبناؤه بجواره لمساعدته و التخفيف عليه .. إلا أن حالتـه سـاءت أكثر و لم يجدوا بداً فى النهاية مـن أيداعـه مـصحة نفـسية حتـى يـستعيد توازنه الذى فقده بسبب أزمة وفاة زوجته المفاجئة

الحارة

رجع سعيد بعد غربة أستمرت سبع سنوات إلى حارتـه حيـث نـشأ .. تذكر آخر مرة غادرها فيها .. أقسم ساعتها إلا يعـود عليهـا أبـداً .. و لكـن للضرورة أحكام .. بعد كل تلك المدة التـى حـافظ فيهـا علـى قـسمه يـضطر للرجوع إلى حارته القديمة ليشهد فرح أخته .

لم يشأ أن يخطر أحد بموعد قدومه .. أرادها أن تكون مفاجأة .. يـشتاق لرؤية أهله رغم أنه يحرص منذ سفره على التواصل معهم كلمـا أتيحـت لـه الفرصة .. يغلبه الـشوق لرؤيـة أختـه الوحيـدة حقـاً .. أختـه التـى تحمـل مسئوليتها بعد وفاة والده فأغرقها بمشاعر أبوة لم يظن يوماً أنه يمتلكهـا .. تركها طفلة فى بداية دراستها الثانوية و ها هو الآن يعود ليشهد زفافها .. لم يصدق أن دورة الأيام كانت أسرع من حساباته و هو رجـل لا يجيـد أكثـر من الحسابات .. فرح أخته الصغيرة اليوم .. الطفلة التى كانت تعدو أمامـه تلهو ببعض الحلوى كبرت لتعدو بفستان الفرح .. هز رأسـه مبتـسماً بعـدم تصديق .. تعمد أن لا يطلـع أحـداً بموعـد قدومـه حتـى لا يعطـل ترتيبـات الحفل .. و تمنى لو تم الزفاف خارج الحارة لعلـه يتجنـبَ رؤيـة أهلـها و لكن لم يكن الأمر بيده ..

أسرع الخطا وسط الحارة .. تحسس حلته الأنيقة غالية الثمن و حقيبـة

يده الوحيدة التى تحوى بعض الهدايا الثمينة .. سيبقى لعدة أيام فقط و سيعود بعدها بسرعة .. أعماله فى الخارج لا تقبل التأجيل .. و لن يمكث إلا لمدة كافيه تسمح له بالأطمئنان على أخته و أمه قبل أن يعود إلى عالم لم يعد ينتابه شعور بالراحة كثيراً خارجه ..

تطلع إلى الحارة شبة الخاوية .. و شوارعها الضيقة المتعرجة التى خلت وقتها من المارة .. يبدو و كأن الجميع فى الفرح الآن .. تلك عادة الأفراح الشعبية كما عرفها منذ صغره .. الكل يترك أعماله ليشارك فيها

سار يتمهل وسط الدكاكين المغلقة تعاوده بعض الصور من الماضى .. صور تراكمت عليها أعوام طوال حتى ظن أنه نسيها .. تطلع فيما حوله مستهزئاً .. لا يبدو و كأن يد التغيير أتت بجديد على الحارة طوال المدة التى غاب فيها .. نفس الحارة القديمة بشوارعها المهملة لم يزدها مرورالزمن إلا خراباً بعد أن ترك آثاره على بعض أبنيتها .. سار بتمهل يطالع المحلات المغلقة على جانبى الطريق .. أبتسم حانقاً و هو يتفحصها مستعيداً بعض ذكرياته .. و تعاود ذاكرته رغماً عنه حكايات و مواقف قديمة ربطته بالمكان ..

على رأس الحارة .. يقبع " مخبز الأمين " .. صاحبه فتحى الأمين .. أسم على غير مسمى .. أبتسم بمرارة و هو تذكر كيف كان يقف هنا بالساعات تحت نار الشمس الحارقة فقط ليبتاع بعض الخبز .. كم مرة

تقاتل فيها لأن شخصاً تعدى على دوره فى الطابور الطويل الذى يبدو و كأنه يمتد بلا نهاية .. أو أحداً داسه بالأقدام فى طريقه فوق رؤوس الناس للمخبز .. يستعيد فى مخيلته صورة تلك اللحظات و هو يصمد لاهث الأنفاس .. ملابسه متسخة و العرق الغزير ينساب من جسده بقوة بينما فتحى الأمين صاحب المخبز يقبع فى الداخل ينفث دخان شيشته بهدوء و هو ينظر للأجساد المتدافعة بلا مبالاة .. يقولون أنه يهرب الدقيق المدعوم إلى السوق السوداء و يكسب كثيراً .. لا يهتم سوى بالنقود و ليذهب الناس إلى الجحيم .. أغمض عينيه و هو يسترجع تلك اللحظات المؤلمة و أسرع الخطى قليلاً .

أدار وجهه بعيداً حتى لا يتذكر المزيد .. شعور بالأشمئزاز تجاه حارته ينمو بداخله ليسيطر عليه .. و المرارة التى يشعر بها فى حلقة الآن لا سبيل للتخلص منها .. تنبه إلى أنه توقف أمام محل " عباس الحلاق " .. هز رأسه فى حنق .. كم مرة جاء هنا .. كان والده يأمره دوماً بالتردد على عباس صديقه دون غيره .. يتذكر كيف كان يأتى متأففاً .. عباس الكهل العملاق لا يجيد سوى قصة شعر واحدة يطبقها على كل الزبائن .. حاول كطفل ثم كمراهق أن يطلب منه القيام بعمل تسريحة حديثة مثل باقى زملائه .. و لكن عباس كان يستهزئ به و يصب لعناته على كل موضة جديدة و يتشبث بتسريحته المعهودة .. كل مرة يخرج من عنده لاعناً أياه ..

أصدقائه .. يترك اللعب ثائراً و هو يلعن كثرة الطلبات و يلعن معها عم كامل البقال .. لما لا تطلب منه أمه كل الطلبات مرة واحدة .. و لما لا يغلق عم كامل دكانه مبكراً و يريحه من التردد عليه طوال اليوم .. يتذكر يوم أشترى بعض الحليب من عنده .. و عندما توجه به للبيت أكتشفت أمه أنه فاسد .. غضبت و أمرته أن يذهب و يسكبه فى وجه " كامل الغشاش " كما صرخت فى وجهه .. كان صغيراً و خائفاً .. ذهب و سكب اللبن بعيداً و أشترى غيره من مصروفه من دكان بعيد .. لا ينسى محمود أبن عم كامل الذى زامله طويلاً فى المدرسة .. كان لا يحبه و لكنه يضطر لأستذكار دروسه معه لأنهم جيران .. أستراح بعدما نجح هو فى الثانوية بينما رسب محمود .. يمر من أمام دكان عم كامل .. الدكان مغلق و إن أبقى صاحبه بعض المصابيح مضاءة أمام المحل كعادته .. يتنفس الصعداء .. يسرع الخطى و هو يلهث نحو بيته .. ينعطف يساراً .. يقابله دكان عم "جميل " بائع العطور .. يشتهر عم جميل بتقليد العطور الغالية و بيعها لأهالى الحارة بثمن رخيص .. كيف ينسى يوم أشترى زجاجة عطر من عنده و أستعملها .. فى المساء ظهرت بقع حمراء على رقبته و يديه .. لم يكن يعلم أن لديه حساسية من العطور .. و أضطر للذهاب للطبيب

لعن الحارة فى سره .. و كل ما يمت إليها بصلة .. أنعطف يميناً .. وقع بصره على دكان" حمادة العجلاتى " .. تطلع للمحل بغضب لم يستطع دفعه

.. عندما كبر و أصبح ركوب دراجته الصغيرة أمراً محرجاً أمام زملائه ، و لم يستطع والده شراء دراجة جديدة له ، بدأ يعتاد المجئ هنا لأستئجار الدراجات .. تذكر يوم أستأجر دراجة لساعة واحدة فقط ليلعب مع أصدقائه .. لم يشعر بالوقت و تأخر .. فذهب عم حمادة إلى أبيه ليشكوه .. ليلتها عاقبه والده بشدة .. ولم يكتفى حمادة بذلك بل أستولى منه على قيمة إيجار ساعة أخرى على الرغم من أنه لم يتأخر سوى لدقائق معدودة ..

ها هو يقترب من بيته .. يراه من بعيد .. يتنفس بأرتياح .. يتوقف أمام آخر محل قبل البيت .. محل " رشدى الساعاتى " .. المحل مغلق أيضاً .. ما زال يتذكر ذلك اليوم و هو يلهو بالكرة مع أصدقائة أمام بيته .. فى أثناء المباراة تملكه الحماس بقوة.. الفريقين متعادلان و من يحرز هدفاً أولاً يفوز بالمباراة .. أستلم الكرة بمهارة من صالح زميله و سددها بقوة .. أحرز هدفاً جميلاً أنهى المباراة لفريقه فقفز فرحاً .. لكن الكرة كانت قوية لدرجة أنها طارت بعيداً و حطمت زجاج محل رشدى الساعاتى .. ظل لشهرين بعدها يدفع من مصروفه الصغير ثمناً للزجاج المكسور بعد أن أشتكى عم رشدى لوالده

لطالما كره هذه الحارة .. مراراً طلب من والدته أن ترحل عنها إلى مكان جديد و لكنها تمسكت ببيتها القديم .. و الأدهى أنها أصرت على أقامة حفل زفاف أخته وسط الحارة و أمام بيتهما القديم رغم أعتراضه الشديد ..

لم يرغب بالقدوم إلى هنا .. سيؤدى واجبه تجاه أخته الوحيدة .. يطمئن عليها ثم يغادر الحارة سريعاً .. يتمنى لو كان بمقدوره إلا يقابل أحد من أهلها ، و لكن لا مفر من ذلك .. كانت أمه تستحثه على المجئ مبكراً .. لم ينس أنه رجل البيت بعد وفاة والده .. أراد أن يساعدها فى تحمل مشقة الفرح و لكن ظروف عمله لم تسمح له .. و تفهمت أمه ذلك

أخيراً يقترب من البيت .. الأنوار المتلألأة تستقبله .. تملأ المكان بينما فرش سجاد أحمر على الطريق .. عندما أقترب أكثر لم يجد بداً من التوقف .. أتسعت عينيه في ذهول .. توقف مبهوراً يطالع فيما حوله بدهشة لم يستطع أن يخفيها .. كان يتوقع فرحاً صغيراً .. و لكنه تفاجئ بفرح كبير لم ير مثله من قبل فى الحارة .. أنتشرت باقات الورد فى كل ركن من الحارة .. الكراسى فى كل مكان .. المسرح الكبير يسد الحارة بأكملها بينما سماعات ضخمة أنتشرت من حوله .. الأنوار تغطى بيته القديم من الأرض و حتى سطح البيت و تمتد لتغطى بيوت كثيرة حوله .. ما أن رآه بعض الحاضرين حتى أندفعوا للترحيب به .. هرع أصدقائه القدامى لأحتضانه .. لم يتوقع أستقبالاً دافئاً كهذا بعد طول تغيبه عن الحارة و أهلها .. رد التحية بود بينما يشق طريقه بصعوبه نحو بيته .. العروس ما زالت فى البيت لم تغادره .. مراسم الحفل لم تبدأ بعد .. يرفع بصره للسماء حمداً أنه أتى فى الوقت المناسب .. يسرع إلى البيت بصعوبة .. يرتقى الدرج

بسرعة .. أضواء الفرح تمتد للداخل حيث أجتمعت بعض النساء داخل البيت للغناء بمرح .. تسرع النساء بالخروج عند علمهن بقدومه .. تستقبله أمه على الباب بشوق ما أن يتناهى إلى سمعها نبأ وصوله .. ما أن يراها حتى يرتمي في أحضانها للحظات و يغيب عن الزمن لبرهة .. تندفع الدموع من عينيها و هو بين يديها .. يقبل رأسها ثم يستسلم لأحضانها الحارة مرة أخرى ، يتمنى أن يتوقف الزمن ليبقى هكذا للأبد .. تربت على كتفه بحنان .. تتمالك نفسها فتمسح دموعها .. تمسك بيديه و هي تبتسم له بأشتياق .. تطمئن عليه .. تقوده بحنان إلى الداخل .. إلى حيث غرفة أخته .. طرق الباب و أنساب داخلها بخفة .. خرجت بعض الصديقات ممن بقين بجوار العروسة لتزيينها .. ما أن وقع بصره عليها حتى تسمر في مكانه .. لم يصدق عينيه .. صغيرته أصبحت عروسة حقاً يتوج جمالها فستان أبيض رائع .. أقترب منها في ذهول .. منع الدموع بصعوبة أن تنساب من عينيه .. بينما أنسابت الدموع من عينيها.. تذكر أنها وعدته أن لا تزف إلى عريسها إلا و هو بجانبها .. لن تقبل أن تدع أحد آخر يمسك بيديها ليقودها إلى حياة جديدة إلا هو .. أرتمت في أحضانه فقبل رأسها في شوق .. ربت على خدها بحنان ثم أسرع بالخروج قبل أن تغلبه مشاعره تاركاً لها المجال لأكمال زينتها ..

أصوات الموسيقى تعلو من الخارج .. يتقدم إلى الشرفة و يتطلع منها إلى

الحارة بينما تسرع أخته لتعديل زينتها بعد أن أبتل وجهها بدموع الأشتياق له .. يشعر بأمه بجانبه .. تتطلع معه للحركة التى تموج بالشارع .. يهمس فى أذنها بعد برهة " لم أتوقع فرحاً كهذا " .. تربت على يده برفق " أهل الحارة لم يتركونا للحظة واحدة .. تولوا كل شئ .. أحبوا والدك حقاً و أقسموا أن يقيموا فرح لأبنته يليق بمحبتهم .. و يعوض غيابه .."

تنفس بعمق و هو يشرف على الحاره ببصره .. يبدو الجميع فى حركة مستمرة لأنهاء ترتيبات الفرح .. من بعيد يقف على الأمين و هو يحمل مجموعة من الكراسى و يرتبها بينما يساعده عباس الحلاق و قد تقوس ظهره تحت ثقل كرسى كبير يحمله .. يتذكر سعيد عندما مرض والده أصر على الأمين أن يبعث دوماً بالخبز إلى البيت كل صباح مع أحد صبيانه ، و عباس الحلاق الذى وقف دائماً بجانب والده فى مرضه و لازمه فى المستشفى لحظة وفاته .. يشاهد عاشور الخياط بجلبابه الأبيض و عباءته الحجازية التى لا يرتديها إلا فى المناسبات يقف لأستقبال المهنئين .. الكل يحب هذا الرجل .. يعتبرونه كبير الحارة لسنه و وقاره .. عاشور لم يخرج من بيته لفتره بسبب مرضه .. هكذا كان يسمع ، و لكنه يتحامل الآن على نفسه ليشارك الجميع الفرحة .. يلمح عم كامل البقال و أبنه محمود – زميل دراسته القديم – فى نهاية الحارة يقومان بنقل صناديق

المشروبات بهمة و نشاط تمهيداً لتوزيعها على المدعوين .. لا ينسى سعيد يوم أن نجح في الثانوية .. كان أول من عرف بالنتيجة عم كامل بعد أن ذهب لمعرفة نتيجة أبنه .. أستقبله في الحارة بالترحاب .. أحتضنه مهنئاً أياه بدفء و فخر و كأنه والده .. لم ينسى سعيد ذلك الحضن أبداً .. وعلى الرغم من أن محمود أبنه قد رسب .. لكن هذا لم يمنعه من أن يقوم بتوزيع المشروبات على الحارة كلها أحتفالاً بنجاحه .. أحتفال صادق عفوى لم ينسى أثره إلى الآن .. عم جميل يقف من بعيد يرتب باقات الورد العملاقة .. عندما سافر سعيد أصر عم جميل أن يوصله للمطار بسيارته الصغيرة على الرغم من أن ميعاد طائرته كان بعد منتصف الليل و هو ينام مبكراً ، و ظل في المطار حتى أطمئن عليه .. في البيت المقابل لمح صلاح الأدهم في أحدى الشرفات يقوم بتعليق بعض لمبات الأضاءة .. يوازن نفسه على سور الشرفة حتى لا يقع .. تذكر ليالى رمضان عندما كان يغدو قبل الفجر لشراء الفول الساخن للسحور .. أعتاد صلاح أن يلبى طلبه أولاً على الرغم من كثرة الزبائن أكراماً لوالده .. و كان يكثر من الطحينية على الفول لأنه يعلم أن سعيد يعشقها .. و قبل آذان المغرب يهرع للمسجد كعادته لتوزيع التمر و المشروبات على الصائمين و كان سعيد يساعده أحياناً بحماس .. تبدأ الموسيقى في العزف بصخب .. وصل العريس على الأرجح .. على المسرح حمادة العجلاتى يختبر الميكروفون و السماعات .. يتأكد أن كل شئ سليم ..

لا ينسى يوم أن أستأجر دراجه منه ، أندفع مع زملائه بحماس و أختل توازنه فوقع و أنساب الدم من أنفه .. حمادة كان أول من هرع إليه .. لم يهتم بالدراجة التى تحطمت .. حمله و توجه به مسرعاً إلى العيادة فى الحارة المجاورة و لم يعد به إلى بيته إلا بعد أن أطمئن عليه .. تقطع أمه شريط ذكرياته .. حان موعد الزفاف .. يتقدم إلى أخته .. تتأبط ذراعه ليزفها إلى عريسها .. ينزلان الدرج ببطء بينما الموسيقى تتصاعد فى الخارج .. يخرجان للحارة و يده فى يدها .. تعلو الزغاريد و يرقص البعض .. رشدى الساعاتى يطلق عدداً من الأعيرة النارية فتطغى على صوت الموسيقى و هو يرقص أحتفالاً .. يمشيان ببطء بينما تزفهما الفرقة الموسيقية من البيت و حتى المسرح الكبير الذى توسط الشارع .. أهل الحارة يشكلون دائرة حول سعيد الذى وقف فى وسطها .. ينظر إلى الفرح و إلى أهل الحارة الذين أندمج بعضهم فى الرقص بمرح بينما وقف آخرون يصفقون بحماس .. يتطلع سعيد إلى كل تلك الوجوه الباسمة .. ينتابه شعور ما بداخله .. شعور مفاجئ يجتاحه فيستسلم له .. يقف وسط الحشد الصاخب حوله تنتابه أنفعالات شتى .. يبتسم لأول مرة منذ وصوله إلى الحارة .. و لأول مرة منذ سبع سنوات كاملة أيضاً .. يحس سعيد بالأمان ..

دائرة الحرامية

أنهى صابر عمله و توجه بسرعة نحو السوق لـشراء أحتياجـات المنـزل قبل عودة الأولاد من مدارسهم .. بدأ بشراء الخضار من المحل القريـب مـن منزله .. رغم عدم جودة المعـروض تفـاجئ بزيـادة الأسـعار .. سـأل البـائع المتجهم عن السبب فلم يجبه فى البداية قبل أن يرد عليه بنفاذ صبر بأن كل الأسعار أرتفعت و أن " السوق عرض و طلب " .. الحجة التاريخية المعتـادة التى طالما سمعها .. وفقاً لهذا المبدأ يجب أن تهبط أسـعار بعـض الـسلع مـن وقت لآخر و لكن الأسعارالمجنونة لدى هؤلاء التجار لا تعرف سوى طريقاً واحداً.. للأعلى فقط .. حمل الاغراض غاضباً .. يعلم أن البائع يستغله نظـراً لعدم وجود محلات قريبة .. لم يعد هناك خير .. هكذا قالها لنفـسه و هـو يسرع بالعودة إلى منزله .. بينما وقف البائع يلاحقه بنظراتـه و هـو ينفـث دخان سيجارته بلا مبالاة

* * *

أغلق سعيد البائع محله و توجه نحو منزله .. تذكر أن عليه المرور على الطبيب .. هذه الكحة اللعينة التى لا تفارقه .. تكاد تمزق أضلاعه و تعجزه عن النوم .. ربما بسبب أفراطه فى التدخين رغم أنه توقف من أسبوع تقريباً عن السهر مع أصدقائه فى الغـرزة القريبـة و تـدخين الجـوزة .. توجـه إلى

الطبيب بتثاقل .. العيادة مزدحمة كالعادة .. تطلع إلى الكراسى القليلة المتهالكة و الجدران التى أكلتها رطوبة قديمة .. عيادة متواضعة لا تتناسب مع شهرة الطبيب .. أنتظر لساعات بصبر مكبوت .. عندما حان دوره أخيراً تفاجئ بأرتفاع قيمة الكشف لدى الطبيب .. كان هنا من أسبوعين فقط عندما كتب له الطبيب دواءاً لم يفلح فى تخفيف حدة الكحة لديه .. دفع مضطراً قيمة الكشف المضاعف متسائلاً عن السبب فى زيادتها بهذا الشكل الفج .. كشف عليه الطبيب للمرة الثانية طالباً منه القيام هذه المرة بعمل أشعة .. أوصاه بمركز أشعة بعيد رغم وجود أكثر من مركز قريب من العيادة .. يسمع أنه يتقاضى نسبة عن كل " زبون " يرسله إلى هناك .. خرج غاضباً بعد أن وصف له دوائاً مهدئاً .. يرغب فى علاج لحالته و ليس مهدئاً لا ينفع و ربما يضر .. ما زاد من حنقه أنه لم يمكث لدى الطبيب أكثر من ثلاثة دقائق بعد ساعات من الأنتظار أسرع الطبيب بعدها لأستقبال زبونه التالى

* * *

قبل منتصف الليل أنهى المرض تنظيف العيادة .. جلس الطبيب مرهقاً يراجع أيراد اليوم .. عاد لمنزله متأخراً .. ما زالت زوجته مستيقظة بينما نام الأولاد .. تناول عشاءه وحيداً كالعادة .. طلبت منه زوجته مصروف البيت و هو يدلف للفراش .. ناولها المبلغ المعتاد و هو بين اليقظة و النوم ..

تطلعت إليه للحظة قبل أن تطلب زيادة .. سألها عن السبب فأخبرته ببساطة أن معلم الدروس الخصوصية لأولاده زاد قيمة الحصة .. تساءل محتجاً عن سبب الزيادة المفاجئة .. هزت كتفيها لترد أن كل المعلمين قاموا بنفس الأمر .. اللعنة .. أولاده يعتمدون بشكل كبير على الدروس الخاصة .. لا وقت لدية لمساعدة أولاده فى الأستذكار أو مراجعة دروسهم التى لا تنتهى .. العيادة تستهلك كل وقته بالأضافة إلى عمل المستشفى الصباحى المرهق .. رغم أهتمامه بالمال إلا أنه يدرك أن أولاده هم أستثماره الحقيقى .. و لهذا لا يبخل عليهم .. يعلمهم جيداً .. ألحقهم بأفضل المدارس الخاصة طمعاً فى تعليم أفضل .. و لكن بيته مزدحم دائماً بمعلمين من كل المواد ملتهمين جزءاً كبيراً من دخله .. و تساءل بحنق .. لماذا لا يقوم هؤلاء المعلمين بدورهم على أكمل وجه داخل مدارسهم .. هو نفسه لم يأخذ درساً فى حياته .. و أولاده أذكى منه .. لماذا لا تكفيهم دروس المدرسة إذن .. فكر لوهلة أن يرفض و لكنه تراجع .. تنهد فى ضيق .. لن يرضي طموحه سوى تفوق أبنائه مهما دفع .. حلمه أن يرى أبناؤه أطباء مثله .. ناول زوجته المبلغ حانقاً .. لا يحب أن يستغله الناس .. أثار الموقف بأكمله غيظه لدرجة كبيرة .. و رغم أرهاقه لم يستطع النوم

* * *

أنهى المعلم الدرس .. نظّر فى ساعته .. ناولته زوجة الطبيب ثمن

منتصف الطريق أخرج عادل الأجرة المعتادة .. تنبه إلى صوت السائق الذى طلب منهم بحزم مضاعفة الأجرة متحججاً بأن اليوم زحام و عدد السيارات قليل .. سرت همهمة أعتراض بين الركاب و لكنها لم تعلو لتصبح مسموعة .. نغمة تتكرر كل مرة فى أجازة نهاية الأسبوع .. يستغلون حاجة الركاب فتتضاعف الأجرة وفقاً لأهوائهم .. تذكر آخر مرة أعترض فيها الركاب على تلك الأتاوة غير المبررة .. أخرج السائق سلسلة معدنية ضخمة من تحت مقعده معطياً للركاب أحد خيارين كلاهما مر .. أما الدفع .. أو مغادرة السيارة فى منتصف الطريق .. نزل بعض الركاب دون أفتعال شجار معروف نهايته مع سائق شبه فاقد للوعى و العقل .. هبط معهم .. أنتظر وسط الحقول لساعات حتى سمع آذان الفجر من مسجد قريب .. لم تسعفه إلا عربة نقل مخصصة لنقل المواشى فى الصباح .. عليه أن يتغاضى اليوم عن هذه الأتاوة منعاً لتكرار التجربة الأليمة .. كما أن الجو ممطر و البرد يتسلل إلى أطرافه .. ما يغيظه أن الموقف نفسه سيتكرر عند العودة و سيدفع مرغماً .. لصوص أولئك الذين يستغلون حاجة الناس بهذا الشكل المهين .. أستمرت الرحلة لساعة قبل أن تلفظهم السيارة على الطريق أنطلق بعدها السائق مخلفاً وراءه سحابة دخان داكنة من عادم سيارته المتهالكة مسبباً لبعض الواقفين أزمة سعال حادة

* * *

أسرع السائق إلى منزله طلباً للراحة .. ورديته الأخيرة أستمرت خمسة عشر ساعة كاملة أستعان خلالها بعدد هائل من أكواب الشاى و السجائر و بعض "البرشام" صناعة محلية .. عادة لا يعمل كل هذا الوقت و لكن اليوم نهاية الأسبوع و الربح مضاعف .. أستقبلته زوجته بفتور بينما لم يستيقظ أولاده بعد .. وضع رأسه على الوسادة و نام بعمق قبل أن تيقظه زوجته بعنف بعدها بأقل من ساعتين .. أنتفض فزعاً .. فتح عينيه بتثاقل و نظر للوهلة الأولى إلى الكائن الذى يحاول تنبيهه دون أن يتعرف عليه .. ذكرته بأنه هو الذى طلب منها أن توقظه بعد ساعتين .. نظر فى ساعة يده بعين واحدة .. موعد ورديتة الثانية .. اليوم حركة المسافرين كبيرة نظراً لنهاية الأسبوع و المكسب أكبر .. أرتدى ملابسه و هو يترنح من سكرة الأستيقاظ المفاجئ من نوم عميق .. فتح دولابه ليسحب مبلغاً كبيراً من المال .. كل الذى جمعه خلال العاميين الماضيين .. اليوم يكتمل مقدم السيارة الجديدة التى طالما حلم بها .. سيارة حديثة تنقله إلى مستوى السائقين الكبار بدلاً من تلك السيارة الأثرية التى يقودها و التى أنفق كثيراً على صيانتها بلا فائدة .. ينوى أن يتوجه اليوم بعد ورديته إلى تاجر السيارات لدفع المقدم .. لم تتاح له الفرصة لرؤية أولاده .. أو تناول أى طعام .. ركب السيارة و أدار المحرك الذى لم يستجيب سوى فى المرة الرابعة .. أنطلق فى طريقه شبه واعى .. بعد ست ساعات أخرى من الدوران بين القرية و المدينة .. عد

أيراده .. و أنطلق نحو معرض السيارات

* * *

متعباً وصل إلى هناك .. متلهفاً لتحقيق حلمه الذى ظل لسنوات يكدح على أمل تحقيقه .. صاحب المعرض مشغول فوقف للحظات يملى عينيه بمنظر السيارة بهيكلها اللامع الذى تنعكس عليه أضواء المعرض .. سينهى الأجراءات ثم يتوجه بها غداً إلى منزله بعد أن يمر على محل ورد يعرفه جيداً لتزيينها .. عروس جديدة لها واجب الترحيب .. عروس مهرها غال أقتطعه من صحته و قوت أولاده .. قطع تدفق أفكاره صوت صاحب المعرض الأجش يرحب به .. قدم له المبلغ متحمساً .. أرتبك صاحب المعرض قليلاً .. أخبره أن أسعار السيارات زادت و أرتفع معها بالتالى مقدم السيارة التى يحتكر توكيلها .. طلب منه بأسف مبلغ أكبر .. أحس السائق بطعنة تجهض أحلامه .. ظل لفترة محدقاً فى وجه صاحب المعرض دون أن ينطق .. لماذا زادت الأسعار بهذا الشكل .. كان هنا من أسابيع معدودة فقط .. كيف توحشت لهذا الحد خلال تلك الفترة الضئيلة .. لملم نقوده و غادر المعرض يجر وراءه أذيال خيبة أحلامه .. الثور عليه العودة لجر الساقية لفترة أطول حتى يستطيع أن يفدى نفسه .. غادرالمعرض منكس الرأس يرقبه صاحب المعرض و هو فى طريقه للخارج بلا أهتمام

* * *

لم يطق الحر الشديد داخل المكتب .. أنتظر طويلاً .. تطلع بنفاذ صبر إلى الملفات المكدسة فوق المكاتب .. عاجله الساعى بكوب من القهوة متأملاً أكرامية كبيرة من العميل الذى يعرفه جيداً .. أخبره بتودد أن صابر – الموظف المسئول – على وشك الوصول .. لديه أجتماع هام سينتهى بعد لحظات .. تطلع تاجر السيارات إلى ساعته .. أعاد تفحص الأوراق التى جاء بها .. أو التى جاءت به إلى هذا المكتب .. آخر صفقاته .. سيارات مستوردة من الخارج لمعرضه أوقفوها لنقص الأوراق .. قالوا أنها مجهولة المصدر .. مر بهذه المواقف من قبل و يعرف كيفية التعامل معها .. كان يعرف الموظف السابق و لكنه رحل بتهمة الرشوة .. لا يعرف الموظف الجديد .. سجله نظيف كما يقولون و لكن لا بأس من المحاولة .. قلبه معلق بالصفقة لعلها تنقذه من تعثر مالى يهدده .. رشف بتوتر من فنجان القهوة سئ المذاق و هو يفكر فيما سيقوله .. متمنياً أن ينتهى الموضوع كما يريد مهما كلفه

أنهى صابر الأجتماع و توجه إلى مكتبه .. يشعر بالأرهاق اليوم .. أضطر إلى الذهاب إلى العمل مشياً بعد أن أستيقظ متأخراً و فاته أتوبيس المصلحة .. و النقود القليلة فى جيبه لا تسمح له بترف ركوب التاكسى .. دلف إلى المكتب حاملاً الملفات بين يديه .. تفاجئ برؤية شخص يجلس مقابل مكتبه .. رجل ضخم يرتدى حلة غالية و يمسك برشاقة بفنجان القهوة .. جلس على مقعده و تطلع للرجل من تحت زجاج نظارته السميكة

.. تحرك الرجل الضخم ما أن رآه .. قدم له نفسه .. تاجر سيارت معروف و صاحب معرض كبير .. ناوله الملف الذى يمسكه بلا كلام .. قلب صابر فى الأوراق قليلاً قبل أن يعيدها مرة أخرى إلى الرجل مبلغاً أياه أن الأوراق غير مكتملة .. أبتسم التاجر أبتسامة كبيرة مصطنعة .. تلفت حوله للتأكد من عدم وجود أحد .. لمح الساعى يقف خارج الغرفة ليمنع أى عميل من مقاطعتهم .. خاطبه بلطف بأنه يعتمد عليه خاصة أن الأوراق تخص صفقة هامة يقوم بها ، و يجب أنهاء الأوراق فى أسرع وقت تحسباً لخسارة مبلغ كبير من المال بسبب غرامات التأخير .. أخبره بصوت منخفض أن المسألة لا تحتاج سوى إلى توقيعه .. نهض بعدها من مكانه فدار حول المكتب .. أخرج ظرفاً صغيراً مكتظاً و دسه بحرص فى درج مكتبه و حرص على أن يكون طرفه مفتوحاً .. نظر صابر إلى كومة الأوراق التى أنبثقت من المظروف منقلاً بصره بينها و بين التاجر الذى عاد إلى مقعده يدخن بهدوء و كأنه لم يفعل شيئاً .. دخل الساعى فأرتبك صابر قليلاً و لكن التاجر أشار إليه بالأنصراف فأطاعه بسرعة .. الرجل ذو نفوذ هنا أذن و تلك ليست أول مرة .. أنشغل التاجر بالرد على مكالمة طارئة مما منح صابر بضع لحظات يتمناها و يحتاجها حقاً لأعادة تفكيرة المشوش .. يدرك أن بوسعه أنهاء الأجراءات بجرة قلم منه .. هذه أول سابقة يتعرض لها منذ أن ترقى و أنتقل إلى المكتب الحالى .. تطلع نحو التاجر لبرهه .. لن يوقفه شئ ..

يعرف هدفه بالتأكيد و يمكنه أنهاء الاجراءات عند مديره أو حتى من هو أعلى منه .. فكر في أولاده و زوجته .. نظر إلى ملابسه الرثة .. تذكر راتبه الهزيل المفروض عليه مواجهة غير متكافئة مع أسعار تتوحش كل يوم بلا منطق .. معركة خاسرة يدفع ثمنها أولاده .. و تسحق كرامته يومياً .. دائرة ملعونة تحكم حلقاتها حول كل شريف مثله و لا تعرف الرحمة لكل من هو خارجها .. و الحل الوحيد بعد التفكير هو الأنضمام إليها .. و تساءل و هو يلقى نظرة أخيرة إلى النقود .. تذكرة أنقاذه .. هل بأمكانه حقاً أن يتخلص من مشاكله و يصبح أخيراً جزءاً من هذه الدائرة .. و ..

أنهى التاجر مكالمته بينما كان صبرى يلقى على النقود نظرة أكثر أستسلاماً

حفلة عيد ميلاد

تبنهت من أغفاءة قصيرة مقلقة .. نهضت بصعوبة رغم آلامها .. تستند على حافة السرير حتى تستطيع القيام .. وقفت لثوان ثابتة في مكانها عاجزة عن الحركة قبل أن تستجمع قواها و تتحرك للأمام ببطء و ثبات .. تخرج إلى الصالة الكبيرة .. ترمى نفسها بوهن فوق أول كرسى قابلها ، لكنها تقفز مذعورة عندما تلمح عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشر .. للحظات تعيد أستجماع قواها مرة أخرى قبل أن تتوجه بصعوبة نحو المطبخ .. ساعتان و يصل أبنها من العمل .. عليها أن تنهى أعداد الطعام قبل وصوله .. تعلم أنه يأتى جائعاً .. يأكل حتى قبل أن يبدل ملابسه .. هى التى علمته من صغره أن لا يتناول أى طعام فى الخارج .. لم تكن تثق بأكل المطاعم على أى حال .. و رغم ساعات عمله الطويل إلا أنه ينتظر حتى يأتى للمنزل لتناول طعامه معها .. الوقت الوحيد فى اليوم الذى تتمكن من الأجتماع به و رؤيته قبل أن يعاود الخروج لعمله مرة أخرى فى المساء .. ينتابها بعض الحماس .. تشعر ببعض النشاط يدب فى جسدها الواهن .. تشعل الموقد .. لما يبدو كل شئ باهتاً أمام عينيها اليوم .. ربما من أثر المياه البيضاء التى أهملت طويلاً علاجها .. نصحها الطبيب مراراً بضرورة أجراء عملية عاجلة و لكنها لا تحب العمليات .. تخاف منها .. زوجها مات على

طاولة عملية .. كما أن أولادها دائماً بحاجة إليها .. لا تقوى على البقاء بعيدة عن المنزل و عن أولادها لفترة طويلة .. تبدأ في غسل الخضروات الطازجة التى أشتراها البواب صباحاً بينما تتصاعد رائحة السمن من أناء وضعته على الموقد .. تلاحظ أرتعاش يديها و هى تمسك السكين لتقطيع البصل .. لم تكن تلك الرعشة تنتابها بتلك القوة من قبل .. يبدو أنها نسيت تناول الدواء .. ستتناوله على أى حال لاحقاً فأمامها يوم مزدحم .. عليها الأنتهاء من أعداد الطعام أولاً فأبنها سيعود قريباً .. ثم وضع اللمسات الأخيرة للحدث الذى تنتظره .. عيد ميلاد أبنها الأصغر الذى تحتفل به اليوم

تسمع جرس الباب .. من المؤكد أنها صباح المرضة .. تمرعليها كل صباح بناء على تعليمات طبيبها .. تمكث معها ساعة أو أكثر .. تتأكد من أنتظامها على الأدوية ، و تحقنها بتلك الحقن اليومية المؤلمة التى أوصى بها الطبيب .. تمضى نحو الباب بصعوبة و هى تستند على الحوائط .. تفتح الباب .. طالعها وجه صباح المشرق .. خرج صوتها ضعيفاً رغماً عنها و هى ترحب بها .. قبلتها صباح كالعادة و هى تدلف للداخل .. أعتادت أن تفعل ذلك دائماً .. و رغم أنها تزورها من عدة أسابيع فقط ، و لكنها تشعر بألفة غريبة معها .. توجهت صباح نحو أريكة فى الصالة لتجلس عليها و هى تعبث فى حقيبتها .. لحقت بها و هى تجر أقدامها بصعوبة .. تبادلا بضع

كلمات .. قبل أن تستأذن منها للتوجه للمطبخ للأنتهاء من الطعام قبل موعد وصول أبنها .. تطلعت صباح للساعة بتعجب قبل أن تقول :

– النهاردة الخميس .. مش أبنك بيرجع متأخر في اليوم ده

تذكرت بالفعل أن أبنها يتأخر كل خميس لحضور أجتماع أسبوعي في العمل .. تلوم النسيان الذى يهاجم ذاكرتها الضعيفة بلا هوادة .. تطفئ الموقد و تعاود الجلوس مع صباح التى أخرجت بعض الأدوات من حقيبتها .. بدأت بقياس الضغط المرتفع كالعادة .. ثم نهضت معها بأتجاه غرفتها لتناولها الحقنة المعتادة .. بمجرد أن دلفت صباح إلى الغرفة حتى وقعت عيناها على جبل الأدوية الملقى بأهمال على منضدة صغيرة بجوار سريرها .. تعلم أنها تعانى من أمراض عدة .. تتذكر آخر زيارة للطبيب و تعليماته التى ألقاها إليها بصرامة :

– لازم تستريح كويس .. و الأدوية تاخدها بأنتظام .. أى مجهود زيادة أو أرهاق هيشكل خطر على عضلة القلب الضعيفة .. حاولى تبلغى الكلام ده لأولادها

و لكنها لم تقابل أى من أولادها .. ألتفت إليها و هى تتمدد على السرير بألم .. خاطبتها فى أشفاق :

– أنتى لازم تستريحى .. دى تعليمات الطبيب

لم ترد عليها .. ليست حمقاء أو صغيرة لا تدرك قوانين الحياة .. تعلم أن مرضها تجاوز مرحلة العلاج و الأمل و بدأت فى مرحلة أنتظار القدر .. كل ما تريده هو بعض المسكنات حتى تستطيع القيام بدورها .. لن يستطيع ألف طبيب أن يمنعها من مواصلة القيام بمسئوليتها كأم فى رعاية أبنائها .. مصدر سعادتها الوحيد فى الحياة الآن .. صحيح أنهم كبروا و لكنهم ما زالوا يعتمدون عليها .. لن يؤلمها المرض و لكن سيقتلها أن تنتهى سنوات دورها كأم لأبناء لم ينعموا كثيراً بظل الأب .. تبتسم لصباح و تنهض لتعد لها مشروب ما .. تكسبها حقنة المسكن عادة بعض النشاط .. تحاول النهوض فيجبرها آلم مفاجئ على السكون .. ما زالت بحاجة لبعض الوقت حتى ينتشر مفعول الجرعة بشكل كامل .. تستغل صباح سكونها فتبدأ ثرثرة معها لا تنقطع بسهولة .. تستسلم لها لنصف ساعة .. بعد أنصراف صباح التى قبلتها و هى تغادر .. تعود للمطبخ لمعاودة أعمالها .. تمزج الدقيق و البيض و السكر فى أناء كبير .. تصنع كيكة كبيرة قبل أن تضعها فى الفرن لتنضج ببطء .. تعود لغرفتها لتناول دوائها الصباحى الذى نسيته

فى طريقها تقع عيناها على غرفة أبنها محمود .. آخر أبنائها .. تتذكر فجأة أمر ما .. تلوم النسيان تلك المرة بقوة أكبر .. تتوجه إلى غرفته .. دائماً تؤجل تنظيف الغرفة حتى قبل موعد قدوم أبنها بساعات فتكون جاهزة لأستقباله .. ترجئ تناول الدواء حتى تنتهى .. أجازة محمود الأسبوعية

اليوم .. يأتى غالباً عند الخامسة مثل أخيه .. تجتمع العائلة أخيراً فى نهاية الأسبوع .. يعمل فى بنك كبير فى العاصمة بعيداً عنها .. ينهى عمله مبكراً فيسافر إليها .. يقضى الخميس معها و الجمعة مع أصدقائه و يسافر فى نهاية اليوم .. يوم واحد فى الأسبوع أفضل من لا شئ .. عيد ميلاده منتصف الأسبوع القادم و لكنها ستفاجئه و تحتفل به اليوم .. حملت معها دلو من الماء رغم ثقله .. سقت الزهور التى يهوى زراعتها على حافة نافذته .. نظفت السجاد و فرشت ملاءة جديدة على السرير .. فتحت النافذة لتسمح بدخول الشمس .. مسحت الأرض بعناية ثم رتبت الغرفة .. آلام الظهر تهاجمها بقسوة و كأن عشرات من المطارق الصغيرة تهشم عظامها .. تتنفس بصعوبة و لكنها تواصل العمل .. قاربت على الأنتهاء على أى حال .. تعود أن يترك غرفته فى فوضى و لكنها تحب فوضويته .. تمسح بعض الغبار المتراكم فوق الزجاج المحيط بصورته .. يقولون أنه يشبهها كثيراً .. عنيد و قوى الشخصية .. يقولون أيضاً أنها دللته .. و لما لا و هو آخر أبناءها .. لم تكن تبخل عليه بشئ .. تعود أن يبوح بكل مشاكله و أسراره لها.. و لكنها كانت أيضاً تقسو عليه أحياناً لمصلحته .. تتذكر عندما ضربته بشدة عندما رسب فى أول أختبار بعد وفاة أبيه ، و لم يرسب بعدها أبداً .. أحب الرياضيات مثلها و شجعته هى .. ربما كان ذلك هو السبب فى دخوله كلية التجارة ليصبح محاسباً فيما بعد .. لا تتذكر كم مرة سهرت معه فى تلك

الغرفة قبيل أمتحاناته .. و عندما حصل على عمل بعيداً عنهـا و تـردد فـى الذهاب .. شجعته و طلبت منه أن يتصرف كرجل لا كطفل ثم بكـت عنـدما خلا البيت منه لأول مرة و نامت ليلتهـا فـى غرفتـه .. هـو أيـضاً أعتـاد أن يكون قويـاً أمـام النـاس و لكـن بداخلـه قلـب حـساس .. تتمنـى فقط أن لا يشبهها و يرث قلب عليل ضعيف مثلها

ترتب المائدة بحماس .. أسـرتها الـصغيرة تعـاود الأجتمـاع اليـوم .. لم يحدث أن أفترقوا بهذا الشكل .. تعاودهـا الـذكريات .. عنـد وفـاة زوجهـا راهنوا على فشلها كثيراً .. أم عاملة بدون زوج لم يترك خلفه شئ يذكر.. و طفلين فى أشد مراحل الأحتياج إليها .. كتب عليهـا أن تقـوم بثلاثـة أدوار على مسرح حياتها .. أم و أب و عاملة .. أنتظر البعض فشلها و بخاصة أهل زوجها لأسدال الستار و أنتزاع الأطفال منها .. و لكنها صمدت .. صبرت .. و قاومت .. لم تكن صلبة و لكن حبها لأبنائها أورثها صلابه لم تظن يوماً أنها تمتلكها .. عملـها كموظفـة حـسابات فـى شـركة كـبيرة بالأضـافة إلى معاش زوجها الضئيل وفـر لهـا الحمايـة مـن ذل سـؤال النـاس .. ألحقت أبنائها بمدارس خاصة تنهى يومها الدراسى متأخراً حتـى تـستطيع أنهـاء عملها بعد الظهر و التوجه للسوق ثم أصـطحابهم بعـد المدرسـة .. أجهـدها الأمر فى البداية و أستنزف قواها .. خاضت حرب طويلة مـع أهـل زوجهـا بعد أعلانهم نيتهم ضم الولـدين إلى أحـضانهم .. كـادت أن تستـسلم و لكـن

خوفها على أبناءها زادها أصراراً .. و أنتـصرت فـى النهايـة علـى حـساب أشياء مهمة تراجعت كثيراً فى قائمة أولوياتها خلف أبناءها أولها صحتها .. ضحت بالزواج .. و قبله بمال ربما كان كافياً لأنهاء كـل أزماتهـا عنـدما عرض عليها رئيسها فى العمل التلاعب فى حسابات الـشركة للتهـرب مـن الضرائب .. لم يكن ضميرها الذى منعها فقط ، و لكن خوفها أن ترى أجساد أبنائها و هى تنمو أمامها من حرام ما جعلـها تـصر علـى الـرفض بحـزم .. أضطررت للانتقال إلى وظيفة أخـرى بعـد أضـطهاد رئيـسها الـسابق لهـا .. زادت أعبائها و لكنها لم تستسلم .. هاجمها المرض مبكراً فأسلمت له قلبها و لكنها لم تـسمح لـه أن يـضعف مـن عزيمتهـا .. وفـرت لأبناءهـا كـل مـا يحتاجونه قدر أستطاعتها .. لم تـسمح يومـاً بـدخول غريـب إلى بيتهـا .. تعلمت أن تستذكر لهم دروسهم حتى لا تحتـاج إلى مـدرس خـاص ينتهـك حرمة بيت تسكنه أمرأة بلا رجل .. ربت أولادها على الأخلاق .. منحتهما الثقة من الصغر .. لم يـشعر أى منهمـا أنـه أقـل مـن غـيره .. حتـى أبنـاء الجيران كانوا يحسدون أبناءهـا أحيانـاً .. نـدمها الوحيـد أنهـا لم تنجـب لولديها أختاً تكون أم صغرى لهما ، و تواصل بعض دورها بعـد رحيلـها .. صعب عليها حقاً أن لا يجتمع أولادهـا إلا مـرة فـى الأسبوع و لكنهـا تعـى طبيعة الحياة .. ليس ذلك وقت الذكريات .. هـزت رأسـها و هـى تخاطـب نفسها .. اليـوم يـوم الأحتفـال بأبنهـا .. عيـد مـيلاده الـذى تحـرص علـى

الأحتفال به سنوياً منذ صغره

نظرت إلى الساعة عندما أنتهت من ترتيب الغرفة .. كانت الثالثة .. هل الوقت أصبح يمضى بسرعة أم تراها هى التى أصبحت بطيئة أكثر من اللازم .. أمامها أقل من ساعتان حتى يعود أبنها الأكبر من عمله .. و بعدها بدقائق يصل الأصغر .. ما زال أمامها الكثير لتنجزه بعد .. توجهت إلى المطبخ لتتأكد من نضج الكيكة التى أعدتها للمناسبة .. أسرعت لتبديل ملابسها .. ما زال عليها شراء بعض الحلوى و الأغراض الأخرى .. لا تثق بذوق البواب .. ستقوم بذلك بنفسها .. عندما أنتهت من تغيير ملابسها كانت تلهث و كأنها أنتهت للتو من سباق طويل .. على باب المنزل تذكرت أنها لم تتناول جرعة الدواء بعد .. فلتنتظر حتى تعود .. تستند على سور الدرج .. تهبط على قدم واحدة بعدما تحطمت الأخرى من سنة أثر أنزلاقها فى الحمام و لم تلتئم عظامها المسنة بعد بشكل جيد .. أستغرق الأمر عشر دقائق كاملة لترى ضوء الشارع .. تفاجئها حرارة الجو .. و الشمس التى أجبرتها قوتها على أغماض عينيها لوهلة .. تشق طريقها بتأن و صعوبة نحو محل بعيد تعرفه جيداً رغم وجود محلات مثله قريبة ، و لكن بضاعتها ليست بنفس الجودة .. وصلت هناك و هى تسمع صوت حشرجة فى صدرها بدلاً من صوت التنفس .. صدمها جو المحل المكيف فوقفت لتلتقط أنفاسها قليلاً .. أنتقت مجموعة و أشارت للبائع بتغليفها .. حملت

الأكياس الكبيرة للخارج .. هل زادت حرارة الشمس أم ضعفها هو الذى يهيئ لها هذا .. توجهت بصعوبة لمحل آخر أبعد لشراء بعض الأغراض و هى تلتقط أنفاسها بصعوبة .. أختارت شمعاً على هيئة عدد سنوات أبنها الجميلة فى حياتها .. أشترت بعض العصائر و المشروبات الباردة و معها أغراض أخرى .. لم تنتبه إلى أن الحمل أصبح ثقيلاً إلى حد ما .. سارت ببطء فى طريق عودتها .. عبرت الشارع بصعوبة لتدلف إلى محل عطور أختارت منه زجاجة عطر غالية يحبها أبنها .. طلبت من البائع أن يغلفها على شكل هدية .. لم تنسى أن تشترى زجاجة أخرى لأبنها الأكبر من النوع الذى يفضله أيضاً .. اليوم تحتفل بهما معاً .. هكذا أعتادت فى كل مناسبة .. حملت الأغراض و توجهت للخارج .. يجبرها الحمل الثقيل على أن تسير بتمهل .. بدأت تسمع صوت تنفسها العالى .. تشعر بقلبها ينبض بقوة أكبر .. ربما بسبب الحفل الذى تعده و تنتظره .. و لكنه ينبض بألم و كأن وتد معدني بارد يخترقه ببطء .. تتجاهل الأمر .. أزدادت حرارة الجو و لا وجود لظل فى الشارع .. لن تتوقف على أى حال للأستمتاع بالظل و الوقت يداهمها .. أمتار قليلة فقط و تصل لبيتها .. تصلبت يداها و برزت الشرايين منها و هى تتشبث بالأكياس .. دقائق و تصل لوجهتها .. تحاملت .. ترى معالم الطريق باهتة أكثر من اللازم .. الصور أمامها بلا تفاصيل .. يبدو أنه من أثر المياة البيضاء التى تراكمت على عينيها ..

ينحنى ظهرها قليلاً تحت ثقل الحمل و هى التى أعتادت أن لا تمشى إلا مرفوعة الرأس .. تشعر بحراتها ترتفع .. تلهث .. خطواتها تبطئ بالرغم من أنها تبذل مجهوداً أكبر .. يصيب قدميها تثاقل خبيث .. لا تريد أن تتوقف .. ترى البناية من بعيد فتشعر أنها على بعد أميال .. تستنشق أكبر كمية من الهواء لا ينفذ إلى صدرها منها إلا القليل .. لم تعد تسمع ضوضاء الشارع .. يغطى صوت ضربات قلبها العالى على أى صوت آخر .. ما زالت تشق طريقها رغم ذلك .. تحاول أن تنظر للوقت و لكن الصورة تبهت تماماً .. الألم ينسحب و يتجمع عند قلبها .. الهواء رغم وفرته لا ينفذ إليها .. تدريجياً يكسو اللون الأحمر عيناها فيكتسى كل شئ بنفس اللون الدامى .. رجفة تسرى فى أطرافها .. عندما تنجح أخيراً فى الوصول إلى مدخل البناية .. تفشل فى الأبقاء على توازنها .. تتعثر .. تضعف مقاومتها .. و رغماً عنها تتهاوى ..

علمت صباح بما حدث فى اليوم التالى .. وجدوها أمام مدخل البناية بعد أن تهاوت على الأرض و يدها ما زالت متمسكة بما تحمله .. لم يستطع الطبيب أن يفعل أى شئ .. و تكفل أقاربها بكل الأجراءات

رغم توقعها بحدوث ذلك إلا أن الأمر صدمها .. صدمها أكثر أن تفقدها بعد أن تعلقت بها و أحبتها .. فى المساء مرت على بيتها .. أنتابها الألم حقاً و هى ترى سرداق العزاء أمامه .. أنهالت دموعها رغم عنها على المرأة

الطيبة التى عرفتها لأيام فتركت أثراً لا يمحى من قلبها .. أمام السرداق الكبير يقف بعض الرجال .. لم تعرف منهم أحداً إلا البواب .. رجل منهم يرتدى بذلة أنيقة يقف فى صدر السرداق يتلقى التعازى من الجميع .. لم تقع عيناها عليه من قبل .. خرج البواب فى تلك اللحظة ليحمل بعض الكراسى فتوجهت إليه .. سألته عما حدث .. تمالكت نفسها بصعوبة و هو يحكى .. عندما أنتهى سألت عن أبناءها لتقديم العزاء .. أشار البواب إلى الرجل الذى يرتدى البذلة .. أبنها الأكبر .. تطلعت إليه .. صمتت لبرهه .. هزت رأسها قليلاً ثم قالت :

– أول مرة أشوفه .. رغم أنى كنت بزورها يومياً

نظر إليها البواب فى دهشة .. قبل أن يصيح :

– تشوفيه ازاى إذا كان هو مهاجر فى كندا من خمس سنين

لثوان نظرت إليه فى ذهول .. رددت بلا وعى :

– مهاجر .. أزاى

تمالكت نفسها قليلاً .. تطلعت نحوه لبرهه دون أن تتكلم .. سألته بصعوبة :

– لكن عمرها ما قالت أنه مسافر قبل كده .. و أبنها التانى ؟

رد عليها وهو يواصل نقل بعض الكراسى : مسافر فى دولة عربية ..

جاله عقد عمل بعد ما سافر أخوه بكام شهر .. نزل بعدها بسنة أتجوز و سافر هو و مراته .. و من ساعتها ما رجعوش ..أبنها الكبير بس لما عرف رجع النهاردة الصبح ، و التانى أحتمال يوصل بكرة .. الله يرحمها كانت طيبة .. ما حدش عارف ليه نزلت أمبارح بنفسها رغم مرضها .. تحبى تروحى تعزى أبنها

حمل الكراسى بعدها متوجهاً سريعاً إلى السرداق تاركاً أياها خلفه بلا أجابة

التحدى

أحب التفاؤل و أنظر للحياة دائماً بنظرة أيجابية .. عكس صديقى المتشائم أغلب الوقت .. جلسنا يوماً فى منزلى نثرثر و نشاهد التلفاز بعد سهرة عائلية .. كنت على وشك متابعة نشرة الأخبار عندما رأيت علامات الأعتراض على وجهه .. طلب مني تغيير المحطة فوراً .. سألنى بأستهجان عن سر متابعتى لنشرات الأخبار بشغف رغم ما تمتلئ به من كوارث و مآسى .. أدرك أن صديقى متشائم بطبعه و إن كان يفسر هذا دائماً بأنه واقعى .. أجبته بثقة – لا أعلم مصدرها – بأن ليس كل ما تحتويه النشرة أخبار سلبية .. فأحياناً تأتى بالعديد من الأخبار الجيدة أيضاً .. طلبت منه أن ينظر لنصف الكوب الممتلئ .. أعتدل فى مكانه و ضحك بلا سبب .. تحدانى ببساطة أن نعثر على خبر واحد جيد فى كل نشرات الأخبار التى يعرضها التلفاز .. كان التحدى مفاجئاً .. خصوصاً من صديقى الذى لم أنجح يوماً فى هزيمته فى أى رهان بيننا من قبل .. تحمست للفكرة و قبلت التحدى الذى عرضه على الفور

لم يكن يهمنى الرهان بقدر أن أثبت خطأه .. أسترخى على مقعده بهدوء بينما أمسكت ريموت التلفاز بيدى و كأنى أمسك سيفاً أستعداداً لمعركة .. أنطلقت النشرة بالأخبار العامة .. مجموعة منتقاة من الكوارث

أحبطتنى .. رأيت أبتسامة سخرية ترتسم على وجهه .. أنباء فيضان تعقبها صور حصرية لزلزال حديث .. علاقات متوترة بين بعض الدول .. مشاهد دمار أخرى و لكن هذه المرة لكوارث بشرية خلفتها حروب دول .. أنتقلت إلى أخبار الأقتصاد المحلية .. عجز و ديون .. تضخم و مؤشرات على فساد مالى يضرب أى جهد لأصلاح أقتصاد متعثر .. رأيته يتابع حماسى بهدوء .. لن أيأس سريعاً .. غيرت المحطة بسرعة على نشرة أخبار أجنبية

طالعت تصريحات عن تدخل أجنبى جديد فى بلد أفريقى تعمه الفوضى .. تعثر مفاجئ لمفاوضات السلام المحتضرة .. ثم القبض عل مجرم خطير أغتصب العديد من النساء .. و أطلاق نار داخل مدرسة .. تحاشيت النظر لوجه صديقى بصعوبة .. لجأت هذه المرة إلى محطة عربية .. مظاهرات يتم قمعها بسرعة .. القبض على عدد من زعماء المعارضة فى بلد آخر .. و أغتيال عالم بارز فى ظروف غامضة .. تطلعت بطرف عينى لصديقى .. أستفزنى هدوئه .. زاد أصرارى .. قلت له بتصميم لا أعلم مصدره أنى لن أترك جهاز التحكم من يدى حتى يسمع أكثر من خبر جيد .. هربت إلى الأخبار المحلية .. وسط فيضان من الأنباء المثيرة للغثيان .. ألتقطت أذناى أول خبر جيد .. زيادة كبيرة فى الأجور لموظفى الحكومة .. أبتسمت أخيراً .. ألتفت لصديقى .. أشرت إلى الخبر المفرح .. لم يعلق و ظل هادئاً .. لا

أعلم لماذا لم يسعده الخبر رغم أن الزيادة ستطول راتبه بأعتباره من موظفى الحكومة .. أخذتنى شهوة الفوز و صممت على تأكيده بالعثور على خبر آخر .. أنتقلت كثيراً بين القنوات حتى عثرت على خبر القبض على مسئول كبير بتهمة الفساد .. قلت له أن هذا الخبر أكثر من جيد .. هز رأسه بالنفى .. قال أن الخبر الجيد هو عدم وجود فساد من الأصل .. لم أجادله رغم عدم موافقتى على رأيه .. تابعت التنقل بين القنوات أكثر .. كدت أيأس .. وصلت لقناة رياضية .. منتخبنا يفوز فى مباراة هامة فى تصفيات المونديال .. يقترب أخيراً من حلم الصعود لكأس العالم بعد أبتعاد طويل .. كدت أقفز فرحاً .. لم يحاول أن يجادلنى هذه المرة .. أكتفى بهز كتفيه بلا مبالاة .. كنت أتمنى أن يعترف بخطأه و لكنه لم يفعل .. سألته ماذا سيقدم لى بعد أن كسبت الرهان .. الخاسر دائماً فى أى تحدى بيننا يختار هدية رمزية لتقديمها للمنتصر .. ضحك قائلاً أنه سيأتينى بهدية " لائقة " فور أن يقبض راتبه الجديد بعد الزيادة .. لم تهمنى الهدية حقاً بقدر أن أرى نظرة الهزيمة فى عينيه لأول مرة أعترافاً بخطأه .. و لكن لدهشتى ظلت أبتسامة السخرية نفسها مطبوعةعلى وجهه

ذهبت فى اليوم التالى لشراء بعض الأحتياجات .. تفاجئت أن أسعار معظم السلع زادت بنسب متفاوتة .. كيف يحدث أمر كهذا بين يوم و ليلة .. علمت من أحد البائعين أن كبار التجار رفعوا أسعار البضائع أمس بعد

علمهم بنبأ زيادة الرواتب .. تباً لهم .. لم أقبض أول راتب بعد الزيادة و الأسعار أنطلقت محلقة عالياً بشكل جنونى .. كان الراتب السابق يكفينى بالكاد أما الآن فأحتاج إلى حسبة معقدة .. تمنيت وقتها لو لم تأت تلك الزيادة المشئومة

بعدها بعدة أيام قرأت أن المسؤول الكبير الذى قبضوا عليه بتهمة الفساد قد أخلت النيابة سبيله بعد عدم ثبوت أدلة كافية عليه .. و رغم حساباته المتضخمة فى البنوك وسمعته السيئة التى تسبقه دائماً .. إلا أنه خرج من القضية بشكل قانونى محترف .. بل وعاد للظهور على مكتبه محمولاً على الأعناق .. و رأيت صورة له فى أحد الجرائد و هو يبتسم أبتسامة واسعة ذكرتنى بأبتسامة صديقى الساخرة

أتصلت به و أتفقت على مقابلته على المقهى .. كان المقهى مزدحماً حيث يتابع الجميع بلهفة المباراة الأخيرة لمنتخبنا فى التصفيات و التى خسرها بكل جدارة وسط سباب الحاضرين .. تحول الحلم إلى كابوس كالعادة .. عندما قابلت صديقى بعد المباراة .. تعمدت أن لا أتكلم عن الرهان السابق بيننا .. تمنيت أن ينساه تماماً .. لن أستطيع الدخول معه فى جدال سأخسره مجدداً .. أقبل و هو يحمل علبة متوسطة الحجم مغلفة بعناية .. تفاجئت به يناولنى أياها قائلاً أنها الهدية التى وعدنى بها .. فتحت الهدية أمامه بلا كلام .. تناولت من داخل العلبة منفضة سجائر أنيقة .. و

كبيرة الحجم بشكل لفت نظرى .. بأستفسار نظرت إليه .. يعلم أننى لا أدخن كثيراً .. بل و بدأت أفكر مؤخراً فى ترك التدخين بشكل نهائى .. قرأ على وجهى علامات الأستفهام .. نظرللهدية ثم قال لى بهدوء أنه يعلم مدى عشقى لمشاهدة التلفاز و بخاصة الأخبار .. فرأى أنى سأحتاجها ! .. تطلعت إليه بصمت .. تفرست فى ملامحه جيداً .. كان جاداً و لم يكن على وجهه أى تعبير من التهكم .. لم أعلق .. أعدت وضع هديته فى العلبة المغلفة بورق الهدايا .. وضعتها بجانبى .. شكرته عليها بأقتضاب .. و ..

لم أعد أتابع نشرات الأخبار من وقتها

الواشى

كنت طوال عمرى واشياً .. لا أخجل من قول هذا .. بعض الناس يطلقون على جاسوس .. خائن .. عميل .. حاقدون هم لا أهتم بهم .. و لا أهتم بالألقاب طالما أحصل على ما أريده

كنت قد بدأت أتخلص من تلك الصفة قبل ان أتوجه للكلية ذات يوم فى سنتى الدراسية الأول هناك .. تفاجئت بمظاهرات و أضطرابات تعم الجامعة .. مجموعات كبيرة من الشباب يحيط بهم أمن الجامعة المتربص دائماً لأى حركة أحتجاج طلابية .. أصوات الطلاب ترتفع بحماس لتهز أرجاء الجامعة بينما شعاراتهم تنتشر فى كل مكان .. أرتفعت حدة التهديدات قبل أن يحيط جنود الأمن المركزى الذين هرعوا إلى المكان بكل مداخل الجامعة و مخارجها .. أطلق الأمن جنوده المسعورة على الطلاب .. أرتفعت الهراوات و العصا الغليظة تنهال عليهم من كل جانب .. صمد الطلاب قليلاً قبل أن تزيد حدة الضربات .. هرب الكثيرون منهم تحت وطأة الألم .. كنت وقتها فى مكتب أحد المعيدين .. أندفع أحد الطلبة للداخل و الدماء تسيل من رأسه .. كان يلهث و يتضرع إلينا بنظراته .. تطلع إليه المعيد قليلاً بتردد ثم أسرع يطلب منه الأختباء خلف مكتبه الضخم .. تناهى إلى سمعنا بعدها بقليل وقع أقدام ثقيلة قبل أن يركل أحدهم

الباب بقسوة بقدمه .. هب المعيد ناحية الباب ليمنع دخول جنود الأمن المركزى .. سأله أحدهم بغلظة عما إذا كان رأى أحد الطلاب الفارين .. هز المعيد رأسه بالنفى .. جالوا فى المكان بأبصارهم للحظات قبل أن يهموا بالمغادرة .. كنت أرى من مكانى الطالب و هو يرتجف خوفاً .. كانوا على وشك الخروج بالفعل عندما صحت فجأة .. أشرت لهم بمكان الطالب .. أنقض الجندى بتحفز بعد أن أزاح المعيد بخشونة أوقعته على الأرض .. صرخ الطالب فى فزع عندما جذبوه من ملابسه .. نظر إلى بلا فهم و هم يجروه خارجاً .. وجدتنى أبتسم بلا وعى .. أبتسامة كبيرة تجمع بين السخرية و الشماتة أرتسمت على وجهى فجأة لم أعلم مصدرها و إن أصبحت مميزاً بها بعد ذلك .. و شعرت براحة لم أفهمها

بالطبع أختفى الطالب لفترة طويلة .. أما المعيد فقد تم تحويله للتحقيق .. لم أحصل على مقابل لما فعلته .. و لكنى لم أهتم .. فى الواقع لم يكن الأمر جديداً على .. لم أفهمه .. و لكنه بدأ معى منذ طفولتى و كأننى ولدت به .. يسرى فى دمى .. كانت أختى دائماً تقول أننى جئت للعالم واشياً .. و لم تكن تغضبنى الكلمة .. فمنذ بدأت أتكلم و أنا أنقل لأبى كل أخبارها .. أو بالأصح أخطائها .. بل أنى كنت أظل أتبعها أحياناً بألحاح حتى أعثر على خطأ ما لأسرع بأبلاغ أبى به بسعادة .. و كانت دوماً تتلقى العقاب بسببى .. و عندما ذهبت للمدرسة تطور الأمر معى من الوشاية بشخص واحد إلى

الوشاية بفصل بأكمله .. كان المجال هنا أوسع .. و الأخطاء أكثر .. أتذكر عندما كان يحلو للطلبة أحياناً تقليد المعلمين أو أطلاق أسماء ساخرة عليهم .. كنت أضحك معهم بل و أشاركهم أحياناً .. ثم أتوجه إلى المعلم أو المعلمة فوراً فى أقرب فرصة و بشكل لا يثير الريبة .. لن أنسى كمال أفضل أصدقائى يوم أطلق على معلم اللغة العربية أسم " كعبول " .. كان المعلم طويلاً و سميناً يلقى بالأوامر طوال الحصة دون أن يستطيع مغادرة كرسيه بسبب سمنته .. و كان يهوى دائماً ضرب الأولاد .. تفاجئ كمال فى الحصة التالية بالمدرس يناديه .. أصطحبه خارج الصف .. لم نسمع سوى صوت عصا الأستاذ و هى تلوح فى الهواء و تسقط على يد كمال الذى أخترق صراخه آذاننا .. بالطبع لم يعلم كمال بمن وشى به .. و لكننى واسيته بحرارة كصديق مخلص .. و فى أمتحان اللغة الأنجليزية .. لمحت زميلى مراد يغش من زميلنا محمود المتفوق دائماً .. رأيت محمود يكتب له الأجابات على المنديل ثم يرسلها له من تحت الطاولة .. لمحت المراقبان و هما مشغولان بالكلام .. لم ينتبه أحدهما لما يحدث .. ناديت على المراقب بحجة أنى أريد سؤاله عن شئ ما غير واضح فى الأختبار .. بمجرد أن أقترب منى حتى تعمدت أن أتكلم همساً .. أشرت له إلى زميلاى الذين يقومان بالغش .. لف المراقب بعدها دورة كاملة حول الصف .. أنتظر لدقيقة .. عندما هم مراد بأخراج المنديل لنقل الأجابات منه .. أنقض عليه

فجأة .. و تم تحرير محضر غش فوراً .. و لأول مرة يرسب زميلى محمود .. و رأيته يبكى منهاراً بعد الأمتحان حتى كاد يغمى عليه .. نظرت إليه و أرتسمت على وجهى نفس الأبتسامة التى عجزت دائماً عن أخفائها رغم محاولاتى

و توقف هذا الأمر قليلاً عندى أيام الثانوية .. و ظننت أننى تخلصت من هذه الصفة .. حتى ذهبت يوماً بعد المدرسة إلى درس الكيمياء .. أحد زملائنا لم يكن موجوداً .. أعتاد أن يتغيب بأستمرار طوال الفترة الأخيرة .. سألت عليه .. أخبرونى أنه يهرب من حضورالدرس فيبقى ثمنه لنفسه ليمرح مع زملائه على المقهى .. أنتابتنى حالة غريبة و شعور بعدم الأرتياح ظل يلازمنى .. سألت طويلاً حتى عرفت عنوان بيته .. ذهبت إلى هناك على الفور و طرقت الباب .. فتح لى أبيه .. عرفته بنفسى بصفتى صديق أبنه و سألته ببراءة عنه .. أخبرنى الأب أنه ربما يكون فى درس الكيمياء الآن .. تصنعت البراءة أكثر وأنا أخبره أننى جئت للتو من درس الكيمياء و لم يكن هناك .. كما أنه لم يحضر من فترة .. بالطبع تخيلت ما حدث .. فقد غاب زميلى بعدها لفترة .. و أصبح أباه يصطحبه لكل درس بعدها .. بالطبع علم أننى السبب وراء هذا .. و لم يغفر لى .. و عندما تقابلنا أرتسمت على وجهى بلا أرادة نفس أبتسامتى الساخرة .. و زال عنى الشعور بعدم الراحة الذى كان يلازمنى .. و توقف الأمر لفترة قبل أن يعود

مرة أخرى فى الجامعة

أصبحت أكثر أحترافاً فى الكلية .. كنت معروفاً لأمن الكلية و للأساتذة .. العين المدربة التى ترى بها كل ما لا تستطيع رؤيته عن أنشطة الطلاب .. و ظل الأمر سراً لفترة قبل أن ينكشف أمرى .. فى الواقع لم أحصل على أى مقابل أو مزايا خاصة نظير عملى .. لكننى كنت أقوم به بأخلاص شديد .. فى آخر عام لى فى الجامعة كنت أرى نظرات الكراهية و اللوم من الجميع تجاهى .. و لكنى تعودت عليها .. لما يكرهوننى هؤلاء الحمقى .. يرتكب البعض الحماقات ثم ينتابهم الغضب عندما يكشف أحداً أخطائهم تلك للعالم .. فما الداعى للقيام بالخطأ من البداية ؟ و هل ذنبى أنهم يسيئون التصرف و السلوك ؟ ثم لماذا يلقون باللوم دائماً على من يفضح أخطائهم و لا يلقون باللوم على أنفسهم أبداً لأرتكابها .. من الأولى بألقاء اللوم عليه .. و هكذا تكونت فلسفتى الثابتة فى الحياة .. أنا شخص أساعد الناس .. فكلما كشفت أخطاء الناس كلما قل تكرارهم لها ، على الأقل خوفاً من عواقبها عند أكتشافها .. و تخرجت من الكلية بتفوق و لكن دون صديق واحد

و أستلمت عملى الجديد .. و نشطت أكثر .. فهنا الوشاية لها ثمن و قيمة .. و هى مفتاح الصعود لأعلى و أكتساب مكانة خاصة لدى رؤسائك فى العمل .. هى أقصر طريق مختصر للنجاح .. و لم يكن أحد هنا يعلم بماضيي الملئ بالوشاية .. و أصبحت أنقل لرؤسائى فى العمل كل ما يدور خلف

ظهورهم و كل ما يحكى عنهم وراء الأبـواب المغلقـة .. و حـصلت علـى أول ترقيـة فى وقت قياسى .. و أزدادت شهيتى للعمل أكثـر .. و تعلمـت كيـف أسجل كل شئ داخل عقلـى .. كـل كلمـة .. كـل تنهيـدة .. كـل دعـاء علـى شخص ما أو أستمطار باللعنات عليه .. و تعلمت كيف أخرجها فـى الوقـت المناسب .. الغريب أننى لم أجد صعوبة فى حفظ أى شئ يخـص غـيرى فـى ذاكرتى التى تعانى من الضعف بشكل كبير

و أصبحت مـشهوراً عنـد رؤسـائى .. نـشطت بـشكل أكـبر .. و علمنـى العمل أن هناك طريقان للوصول إلى قلب أى رئيس .. النفـاق و الوشـاية .. و لم أكن منافقاً .. و لم أحاول هذا .. بل أننى كنت أكره المنافقين .. الفئة التى تتحصل على مكانة عالية بسهوله دون أن يبذل أحدهم جهداً كالذى أقوم به فى مراقبة الناس .. و تحسنت أحوالى المالية بعد عدد من الحـوافز لكفـائتى فى العمل .. و أتاح لى القدر فرصة لم أكن أتوقعها .. كان هذا من فترة طويلة عندما أصبح كرسى الرئاسة فى الشركة التى أعمل بهـا فارغـاً بعـد أقـتراب شاغل المنصب من المعاش .. كان أمراً نادراً أن يصبح المنـصب فارغـاً .. وقـع خلاف شديد بعدها بين أثنان من رؤسائى فى العمل حول أحقية أى منهمـا فى الحصول على أكبر منصب فى الشركة .. الفرصة التى لا تتكرر كثيراً .. و أتجهت الأعـين تتـابع الـصراع الـدائر بينهمـا .. و درات مبـاراة تحـدى خاصة بين العاملين للرهان على المنصب الشاغر الحائر بين كـل منهمـا .. و

أنحاز كل عامل لطرف .. كان التنافس على أشده بينهما قبل أن أتدخل .. كنت قد أخترت الطرف الذى أنحاز له .. و لم يكن أنحيازى له بناء على كفاءته فى العمل أو لأننى توسمت أنه الأفضل .. و لكن فقط لأننى كنت أعمل مع غريمه و أعرف عنه الكثير من الفضائح و الأسرار .. و كان هذا من سوء حظه .. أو ربما القدر الذى جعلنى أعمل معه .. و أستطعت أن أنقل كل أخباره إلى منافسه الذى كان ينتظرها بشوق .. و بالطبع أستغل الأخبار و فاز بالمنصب .. بينما توارى غريمه بالأختباء و الأبتعاد عن الشركة نهائياً بعد أن تسربت فضائحه .. و قربنى المدير الجديد منه .. ظل محتفظاً بجميلى .. و تصور أننى قمت بهذا أيماناً منى به .. و لم يكن يعلم طبيعتى .. و دعانى يوماً إلى الغداء فى بيته .. و هناك تعرفت على إبنته .. تحولت حياتى بعدها تماماً .. في الواقع أحببتها من أول نظرة .. كانت جميلة و رقيقة .. و تبادلنا الأعجاب .. و شجعنى والدها على التقدم رغم أمكانياتى المحدودة مقارنة بهم .. لم أكن غنياً مثلهم و لكننى كنت أتمتع بقدر كبير من الوسامة و ينتظرنى مستقبل كبير و الأهم أننى حزت على ثقة الأب .. و تم الزواج سريعاً

يمكننى القول بعد الزواج أننى أصبحت أكثر نفوذاً و قوة .. ولم أعد أخاف أحد .. بأستثناء زوجتى .. ليس فقط لأننى أكتشفت للأسف أنها سريعة الغضب و متهورة .. أو لأن والدها هو مديرى .. و لكن لأنها أيضاً

تشارك بنسبة كبيرة فى مصروف البيت بعد أن خصص لها والدها مبلغاً شهرياً حتى يمكنها أن تعيش فى نفس المستوى الذى أعتادته .. و أنجبنا ولداً جميلاً بعد عام .. و أنشغلت هى به .. و أتاح لى فرصة أنشغالها التحرك بحرية أكبر.. كنت قد أكتسبت مكانة خاصة داخل العمل و خارجه .. تعرفت على أوساط جديدة و كونت علاقات متعددة .. دخلت عوالم جديدة لم أكن أتخيلها و أختلطت بها .. و بدأت أتعرف على لذات أخرى فى الحياة غير الوشاية و النفوذ .. ببساطة تعرفت على لذة السعى وراء النساء .. كانت بداية تعرفى على هذا العالم من خلال عملى فى الشركة و أختلاطى بالعملاء .. ثم تطورت علاقاتى و تشعبت .. و أصبح لى أحياناً أكثر من عشيقة .. و مرت سنوات على هذا الحال .. و كنت حريصاً على أخفاء رائحة هذه العلاقات حتى لا تصل لأنف أحد .. و بالأخص زوجتى .. و كنت ناجحاً فى الأمر .. كنت أدرك تماماً مدى غيرة زوجتى الشديدة و عصبيتها .. و أن انكشاف أمرى معناه نهاية مستقبلى .. كانت مغامراتى النسائية مخاطرة بلك تأكيد .. و هذا ما زاد من لذتها

أستيقظت ذات يوم منتعشاً .. بعثت لى عشيقتى صباحاً برسالة تذكرنى بموعدى معها الليلة .. تذكرت أن لدى موعد عمل هام فى نفس التوقيت .. أضطررت للأتصال بها لتأخير الموعد قليلاً و تغيير مكان السهرة .. عادة لا أقوم بأى أتصالات من البيت من باب الأحتياط .. و لكنى كنت قد تأكدت أن

زوجتى فى الحمام و أبنى منشغل بأستذكار دروسه بجوارى .. عندما رجعت فى المساء بعد أمسية رائعة .. تفاجئت بزوجتى تقف فى أنتظارى .. كنت أجدها عادة نائمة فى مثل هذا الوقت .. تظاهرت بالبراءة .. باغتتنى بسؤالها عن المرأة التى سهرت معها .. أرتسمت على وجهى علامات الدهشة و الأنكار .. كنت معتاداً على هذا بأى حال .. تنتابها أحياناً نوبات من الشك و لكنى أستطيع القضاء عليها بسهولة .. كنت على وشك نفى التهمة عندما باغتتنى بما لم أتوقعه .. تفاجئت بها تعرف أسم عشيقتى و المكان الذى سهرنا فيه .. بل و بموعد لقائنا .. وقفت تنتظر ردى و الشرر يتطاير من عينيها .. شلتنى المفاجأة عن التفكير .. هل كانت تراقبنى .. هل كلفت أحد بملاحقتى .. كيف عرفت بكل تلك التفاصيل .. هل وشى بى أحد .. بدأت أرى سحب الغضب تتجمع على جبينها .. أعلم جيداً أن مستقبلى قد يجرفه فيضان عصبيتها الآن .. لا أعلم ما الذى عرفته أيضاً بعد أن علمت بكل تلك التفاصيل و لهذا أطبقت فمى ولم أستطع الكذب .. وقفت كورقة فى مهب الريح .. نظرت للأرض مذنباً بلا كلام أستعد للعاصفة القادمة التى ستقتلعنى بلا رحمة .. لمحت أبنى الصغير ذو الخمس أعوام .. لأول مرة ألاحظ وجوده معنا منذ بدأ النقاش .. نظرت إليه بحب و أشفاق .. لم أرغب أن يشهد موقف كهذا .. كان يقف خلف والدته تماماً .. و رغم ما أمر به و ما ينتظرنى فى تلك اللحظه .. لاحظت شيئاً

غريباً دفعنى لأن أدقق النظر فيه .. رأيته و قد أرتسمت على وجهه أبتسامة غريبة .. أبتسامة تجمع بين السخرية و الشماتة و أحتلت جـزء كـبير مـن وجهه الطفولى المحبب البرئ .. أبتسامة أعرفها جيداً بالتأكيد

الوحش

كنت أصعد الهرم و أنا أمسك يدها .. من ورائنا باقى الطلاب و خلفهم الأستاذ عبود .. ترددت عند المدخل و توقفت تماماً .. خاصة عندما رأيت المكان شبه مظلم .. لاحظت المعلمة أرتباكى .. حاولت أن تتقدم و لكنى أفلت يدها و تراجعت خطوة للخلف .. تطلعت إلى بدهشة .. أنحنت و جلست على ركبتيها و أنا أنظر إلى الأرض بخوف .. بيدها رفعت وجهى إليها و أبتسمت .. سألتنى عن سبب توقفى بنبرات هادئة .. ترددت قليلاً و أنا أرى الأطفال من خلفى و قد بدأ بعضهم فى السخرية منى .. أخبرتها بخجل أنى أخاف من الظلام .. ضحكت برفق .. أحتضنتى لبرهة قبل أن تأمر باقى الطلاب بالدخول مع الأستاذ عبود و أنتظرت هى فى الخارج معى .. جلست على صخرة بجوارى و هى تدارى وجهها الجميل من أشعة الشمس الحارقة .. و أحتضنتنى بجوارها

كنا فى رحلة مدرسية للهرم .. فرحت جداً عندما أعلنوا عن الرحلة فى مدرستنا .. عرفت بعدها أنها مخصصة لطلاب الصف الرابع فقط بينما ما زلت فى الصف الثانى .. رأيت أخى و هو يستعد للرحلة فتملكنى غيظ مفاجئ .. كثيراً ما تمنيت زيارة الأهرامات و رؤية هذا التمثال الذى يطلقون عليه أبو الهول .. خصوصاً أن معلمة الرياضيات كانت تصفنى دائماً

بأبو الهول عندما أجلس ساكنة طوال الحصة و لا أشارك فى أى نشاط رغم تفوقى .. ظللت أسبوعاً لا أنام و حولت حياة أسرتى إلى جحيم و أنا أبكى من عدم ذهابى .. حاولوا أقناعى كثيراً أن بأمكانى الذهاب للرحلة لاحقاً عندما أكبر و لكنى لم أصدقهم .. لم يجد أبى مفراً من الذهاب للمدرسة .. طلب من أدارة المدرسة السماح لى بالذهاب للرحلة مع أخى الأكبر رغم معارضة أمى .. أحب أبى لأنه يدللنى كثيراً و يلبى معظم طلباتى التى تبدو غريبة .. و لأن مدير المدرسة صديقه فوافق على منحى هذا الأستثناء .. ما زاد من سعادتى هو علمى بوجود مس أحلام فى الرحلة .. أعرفها جيداً و أحبها و هى أيضاً تحبنى .. قامت بتدريسى من قبل فى الصف الأول و لكنها أنتقلت هذا العام إلى الصف الرابع .. لم أكن أذكى تلامذتها و لكنى كنت متفوقة .. أشارك كثيراً فى الأذاعة و يقولون أنى موهوبه و صوتى رائع .. أحفظ الأناشيد بسرعة و أغنيها فى برنامج الصباح بثقة

رأيت أبو الهول .. لم أتوقعه بهذه الضخامة .. تساءلت لما تشبهنى معلمتى به رغم أنى لست ضخمة مثله .. أندهشت عندما رأيته بلا أنف و تحسست أنفى بلا وعى .. أقتربنا من الهرم الأكبر .. أستقبلنا مرشد ليقودنا فى رحلة صعودنا للهرم لزيارته من الداخل

لم أكن أعلم أنى سأزور هذا المكان المرعب من الداخل .. لو كنت أعلم لما ألححت فى الذهاب .. مؤكد أن الهرم مظلم لا مصدر للضوء بداخله ..

يقولون عنى جريئة .. لا أخاف من الكلاب أو القطط .. لا أخشى التعامل مع الغرباء ، و لا أرتبك عند الغناء فى أذاعة المدرسة أمام التلاميذ .. حتى عندما رأيت فأراً فى منزلى لم أخاف منه أو أقفز رعباً فوق الأريكة مثل أمى .. و لكن الظلام شئ آخر .. أرتعب بشدة إذا أقتربت من مكان مظلم .. لا أنام ليلاً إلا فى حضن أبى أو أمى .. عندما تنقطع الكهرباء فى المنزل أظل أصرخ حتى تأتى .. أنزل أحياناً للعب مع صديقاتى أمام البناية و لكن عندما أرى مدخل البناية مظلماً أظل جالسة على الدرج بخوف حتى أسمع صوت شخص يهبط الدرج فأسير خلفه حتى أتجاوز المدخل .. ربما أنتظر ساعات حتى تمل البنات و تعود كل واحدة إلى بيتها .. لا أعلم لماذا أخاف من الظلام .. ربما بسبب كل تلك الحكايات الغريبة التى سمعتها .. و كل تلك الكائنات المشوهة التى كانوا يهددونها بها عندما كنا صغاراً

لا أتصور وجود هذه الكائنات سوى فى الظلام .. أراها بكل وضوح .. أرى أشكالها المرعبة و هى تقترب منى .. بعضهم بلا سيقان و بأذرع مخيفة .. أحدهم بخاصة مخيف و يمتلك عيناً واحدة فقط تحدق فى و هى تضحك بجنون فتصيب جسدى بالشلل .. أسمعها تتحرك بوضوح فى الظلام و هى تتهامس و تشير نحوى .. ضحيتها التالية .. أكاد أجن و أنا أتصور ما الذى يمكنها فعله عند الأمساك بى .. حتى عندما أغمض عينى فى الظلام أحس بها تلتف حولى .. أشعر بأصابعها النحيلة تلامس شعرى فأنكمش أكثر ..

لها أظافر طويلة متسخة و أيدى نحيفة مخيفة .. يقشعر جسدى كله و يرتجف عندما أحس بها بجوارى .. لا يحمينى منها أحد ، حتى عندما أكون مع أبى أو أمى .. تتسلل بينهم بسهولة تامة .. الغريب أنهم لا يستطيعون رؤيتها و لكنى أراها جيداً .. لا أعلم لماذا أراها أنا فقط .. لا يصدقوننى عندما أصف لهم هذه الكائنات .. على الرغم من أنى أصفها كما تتراءى لى تماماً .. الغريب أنها تختفى عندما يعود الضوء و لا تظهر .. و لهذا أعتاد أبى أن يترك ضوء الصالة مناراً طوال الليل فيغمر جزء منه غرفة النوم حتى أستطيع النوم بجوارهما بسهولة بالرغم من أن الضوء يضايقه

أفقت على صوت المعلمة و هى تسألنى عن سبب خوفى .. حكيت لها بكل صراحة عن مخاوفى .. أستمعت إلى و هى تهز رأسها بهدوء و عندما أنتهيت أبتسمت بتفهم .. كنت أعلم أنها ستفهمنى .. أجلستنى بجوارها .. تكلمت بثقة .. لم تنفى وجود هذه الكائنات .. لو فعلت لما صدقتها .. و لم تؤكد وجودها ، و لكنها أخبرتنى أننى أقوى منها .. أستطيع أن أهزمها بسهولة .. سألتنى إن كانوا أقوياء بالفعل كما أتصور فلما لم يختطفوننى من قبل عندما كانت تتاح لهم الفرص .. لم أجد أجابة .. قالت أنهم لا يستطيعون أيذاء أى شخص .. مثلهم بالضبط مثل الشخصيات الشريرة التى تعرض فى التلفاز .. لا يستطيعون الخروج من شاشة التلفاز لأذيتى .. أثق بمعلمتى كثيراً و لكنى ما زلت خائفة .. فكرت هى لدقيقة ثم طلبت منى أن

أغمض عينى .. أطعتها على الفور .. طلبت منى أن أحلم بشئ تمنيت كثيراً الحصول عليه .. أو أتخيل مكان جميل أرغب بشدة بالتواجد فيه .. للحظات لم أفلح ثم بدأت أتخيل حديقة كبيرة مليئة بالأزهار و الألعاب و الحلوى .. من حولى بعض صديقاتى المقربات و نحن نمرح بجوار نافورة مياة كبيرة ينتشر الرذاذ منها علينا .. وصفت لها ما أحلم به و بدون أن أدرى وجدت نفسى أبتسم .. حلمت بوجود أمى و أبى بجانبى ثم محيتهما من الحلم بسرعة .. أشعر بالراحة و أنا أقفز من مكان لمكان و أفعل كل شئ دون رقابة .. أستطيع أن ألتهم كل هذه الحلوى و ألعب دون أن تذكرنى أمى بحل واجباتى .. أحببت الأمر .. عندما فتحت عينى كنت سعيدة لهذا الحلم الرائع و حكيت لها عنه بحماس .. ربتت على كتفى بحنان .. أسعدها كلامى .. قالت أن هذا دليل على أن الظلام ليس بالسئ دائماً .. عندما أغمضت عينى لم أكن أرى الضوء و لكنى كنت فى عالم أجمل .. و لم أصادف أى كائنات مخيفة .. أفهمتنى أنى أستطيع ان أعيش فى عالم جميل من الخيال أبنيه و لا يتحكم به شخص سواى .. طلبت منى عند شعورى بالخوف أن أغمض عينى فقط و أعود لأحلم بأى عالم جميل أتمناه .. زال شعور القلق بداخلى و أحسست بالذنب لأنى كنت أجبن من اللازم من قبل .. أمسكت يدى مرة أخرى و سألتنى إذا كنت مستعدة لدخول الهرم .. ترددت للحظة ثم وافقت بجرأة و أخبرتها أننى لم أعد أخاف من الظلام ..

لم أعد أراه سيئاً مثلما أعتدت .. مشيت معها بأستسلام بعد أن تجرأت قليلاً

كان الطلاب فى أنتظارنا و معهم الدليل عندما دخلنا .. المكان ضيق و لكنه مضاء بالعديد من مصابيح الأضاءة و لم يكن مظلماً مثلما تخيلت .. تعمقنا فى الداخل .. أستأذن الدليل منا للحظات و تركنا نتجول .. مشيت أنا و المعلمة فى مؤخرة الصف و معنا الأستاذ بدوى .. كان الأولاد يدونون كل شئ يرونه .. فالزيارة فى الأصل لم تكن سوى رحلة تعليمية حيث يدرسون كل شئ عن الهرم فى أحد وحدات المنهج .. مر الوقت بسرعة و نحن نستمتع رغم ضيق المكان و نقص الهواء .. أبتعدنا عن المدخل و صرنا فى عمق المكان .. رأيت سائح أو أثنان .. أول مرة أرى سائحين .. كان منظرهم طريفاً .. مرت نصف ساعة و بدأنا نستعد للمغادرة .. عندما حدث أمر ما فجأة .. رأينا مصابيح الأضاءة تومض مرتان أو ثلاث .. تسمرنا فى أماكننا .. ثم غرق المكان فجأة فى الظلام .. سمعنا صوت الأستاذ بدوى يطلب من التلاميذ بصوت عالى البقاء كما هم فى أماكنهم بينما أرتفع صراخ بعضهم .. ساد الهرج للحظات قبل أن يختفى تدريجياً .. يبدو أن الجميع ألتزم بتعليمات المعلم نتيجة للخوف .. سمعنا بكاء البعض .. و بعضهم كان يتنفس بصعوبة .. أدرك هذا من صوت أنفاسهم السريعة المتلاحقة .. تحسست بيدى فلامست شخصاً بجوارى قفز صارخاً من الرعب عندما لمسته .. كان تلميذ آخر .. صوت الأستاذ يعلو فى المكان و هو يطمئن الطلاب

بنبرات قوية .. سمعنا صوت الدليل يأتى من مكان بعيد يخبرنا بوجود مشكلة فى الكهرباء سيتم حلها سريعاً .. طلب منا البقاء فى أماكننا .. لماذا يكررون هذا الطلب الغبى .. من يجرؤ على التحرك فى هذا الظلام التام .. كان الظلام حالكاً حقاً .. أعمق من أى ظلام مررت به من قبل .. لم أستطع حتى رؤية أصابع يدى .. بحثت بيدى عن المعلمة و لكنى لم أجدها بجوارى .. يدى أفلتتها بدون قصد لحظة أنقطاع الكهرباء .. يبدو أنها ذهبت لتساعد الأستاذ بدوى .. شعرت بالضعف بدونها .. أحسست بالخوف يتسرب إلى سريعاً .. بدأت أرى هذه العين التى أعرفها .. و تلك الكائنات .. هذه المرة الدماء تسيل من على جانبى فمها و قد اكتسبت أنياباً جديدة .. دنت منى و هى ترفع أصابعها الرفيعة المخيفة فى الهواء .. تراجعت للخلف حتى أصطدمت بجدار .. أنكمشت فى رعب و غطيت وجهى .. أقتربت منى أكثر .. جلست أرتعش بأستسلام .. لم يخرج صوتى .. أنتظرت للحظات بلا مقاومة أن تلتهمنى .. و لكنها لم تفعل .. رفعت رأسى بتردد و نظرت إليها .. كانت مخيفة كما هى و لكنى أدركت أنها عاجزة عن أيذائى .. لا تفعل أكثر من أثارة خوفى .. هل هى ضعيفة حقاً كما قالت معلمتى .. بدأت أشك بقدرتها على ترهيبى .. أغمضت عينى و سرحت أحاول بصعوبة تخيل مكانى المفضل .. فشلت لدقائق قبل أن أهدأ تماماً .. أرتسمت أمامى الأشجار أولاً ثم طريق صغير .. بدأت الأزهار تنبت فى كل

مكان و سمعت ضحكات صديقاتى و هن يلعبن بمرح فى الحديقة .. رفعت رأسى فرأيت الشمس و السحب الجميلة .. بدأت أدندن بأغنية أحبها حفظتها مؤخراً بعد أن رأيتها فى التلفاز أكثر من عشرين مرة .. مع الغناء أحسست بالمرح .. أنطلقت فى الحديقة ألعب و أمرح .. هذه المرة قفزت فى النافورة و بللت ملابسى .. مرت دقائق و أنا فى عالم آخر يتسلل إليه أحياناً بكاء طفل أو صراخ طفل آخر .. و لكنى لم أهتم و واصلت اللعب بحماس .. لم أعد أشعر بما حولى .. بل بدأت أتساءل لماذا لا يستمتع هؤلاء الحمقى معى بهذا المكان الجميل و يكفوا عن أزعاجى بالبكاء .. وجدتنى أبتسم بلا وعى .. سرحت فى عالم أمتلكته لدقائق .. قبل أن أشعر بحركة قوية أضطرتنى لمغادرته مؤقتاً .. هل جاءت وحوش جديدة لمهاجمتى .. لا .. رأيت الضوء يعود للمكان .. تنبهت و تطلعت حولى .. معظم الأطفال كانوا يفترشون الأرض و بعضهم ملتصق بالجدار و الفزع واضح على وجوههم .. قاموا فوراً عند عودة سريان الطاقة .. صاح بعضهم فى مرح .. و مسح بعضهم دموعه .. بدأ الأستاذ بدوى ينظم الطلاب فى صفين لسرعة مغادرة المكان .. تلفت أبحث عن أخى .. وجدته ينظر إلى بتعجب .. لم ألاحظ أنى وسط هذه الظروف كنت ما زلت مبتسمة و أدندن ببساطة أغنيتى المفضلة بصوت مسموع .. بدأوا يتحركون سريعاً فى طريقهم للخارج بعدما عاد المرشد سريعاً ليدلهم على المخرج .. و لكن أين مس أحلام .. نساها الجميع

للحظات .. كانت بجوارى عند أنقطاع الكهرباء .. تلفت أبحث عنها .. فـى ركن مظلم لمحت خيال يجلس على بعد أمتار قليلة .. و لكن الخيال لم يكن يتحرك .. ناديت المرشد .. أقتربنا منه .. سلط عليه المرشد ضوء كشاف فـى يده .. رأينا الجالس بوضوح .. أمرأة ما .. واضح من ملابسها ولكنها تخفى معظم وجهها .. ربما سائحة مـذعورة .. تجلـس علـى الأرض و قـد ضـمت ركبتاها على صدرها .. تلف يدها حول ساقيها بقوة و تنظر إلينـا برعـب و نحن نواصل تسليط الـضوء عليهـا .. سمعـت صـوت أسـنانها تـصطك بينمـا جسمها يرتجف بقوة .. تنظر حولها بهلع و تخفى وجهها و كأنها تحمى نفسها من كائنات وهمية تراها .. وقفنا على بعـد خطـوات منهـا .. رفعـت عيناهـا بعـدها للحظـة تحـدق لـشئ مـا فـى الظـلام بـذعر حقيقـى و كأنـه سيهاجمها .. تعرفت عليها وقتها

تأكدت أنها هى .. لم تكن سائحة بل كانت معلمتى .. فى حالـة رعـب تامة .. كانت مس أحلام أخرى

الدور

سألت صديقى الممثل : ما أغرب حكاية مرت بك فى حياتك ؟

قفز السؤال إلى ذهنى فجأة فخرج بلا حساب .. سكت قليلاً سارحاً مع تيار أفكاره .. نظر لنا نظرة طويلة .. نفس شلة الأنس القديمة التى تتكون منى و ثلاثة من أصدقائنا .. نجتمع كل فترة فى منزله .. سحب نفساً عميقاً من الشيشة المستقرة أمامه قبل أن يقول بهدوء :

– تعلم من سنوات طويلة كنت ممثل مغمور .. لم يكن أحد يسمع عنه .. وقتها كنت أسكن فى بيت قديم متهالك .. صاحبته أرملة صغيرة فى السن .. لا زلت أتذكرها جيداً حتى الآن

سكت للحظات أكتسى وجهه خلالها بأبتسامة صافية قبل أن يكمل :

أنا فنان سافرت حول العالم .. عرفت نساء بعدد شعر رأسى .. مغامراتى أكثر من أن أتذكرها .. بحكم عملى تعاملت مع أجمل ممثلات .. فنانات .. عارضات أزياء .. لكنى لم أقابل يوماً من يضاهى جمالها .. جمال غريب من النوع الذى تقابله مرة واحدة فى حياتك .. إلى اليوم ما زلت أتذكرها و كأن صورتها نقشت بألوان لا تمحى على جدران ذاكرتى .. أحياناً عندما أؤدى مشهد رومانسى أتخيلها فقط أمامى فتنساب مشاعرى و أؤدى الدور بسلاسة لا أعهدها

سألته مندهشاً : لهذه الدرجة ؟

رد قائلاً و قد أعتدل في جلسته : طبعاً .. كيف أستطيع أن أصف جمالها .. جمال رباني نادر أن تراه في حياتك .. صورة مثالية لن ترسمها حتى في خيالك .. لو رأيتها لعرفت .. صغيرة هي .. لم تتجاوز الثالثة و العشرين .. تزوجت من رجل كبير في السن في مثل عمر أبيها .. تاجر كبير من الأرياف رآها في زيارة لقريته فأعجبته .. والدها فلاح بسيط و أخوتها بعدد أصابع اليدين .. تقدم لخطبتها مباشرة فلم تسع الفرحة والدها الفقير .. تزوجها رغم أنه متزوج وبعض أولاده يفوقونه طولاً و يتجاوزونها عمراً.. جاء بها لبيته القديم بعيداً عن زوجته الأولى .. بعد سنتين مات .. ورثت هي منه البيت القديم و إن كان يوجد خلاف بينها و بين أولاد زوجها .. أستأجرت شقة منها .. لم أكن أراها كثيراً في البداية حيث كنت أعود من عملي في المسرح كل ليلة متأخراً .. و أيضاً لأنني كنت أتأخر دوماً في دفع الأيجار .. لكن في الفترة الأخيرة بدأت أترقبها و أحاول الأقتراب منها .. كنت أنتهز أي فرصة لأكلمها .. أرسم و أخطط للأيقاع بها كما لو كانت حياتي تتوقف على هذا الأمر .. مرت أسابيع و بدأت الألفة تزيد بيننا بشكل كبير لكني لم أستطع أيقاعها في شباكي .. و إن كنت أنتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر .. و لم أحكي لها طبعاً عن عملي كممثل فاشل

عدت يوماً من المسرح متأخراً .. أحد أصدقائي دعاني لسهرة خاصة ..

وافقت رغم أني توقفت عن السهرات الحمراء من فترة .. على مدخل البيت لمحت شبح عيد الشحات .. يجلس متدثراً ببطانية قديمة و هو يرتجف من البرد .. عادة كنت أصرخ فيه و أسبه عندما يظهر لى كعفاريت آخر الليل على مدخل البيت و أنا أترنح فى عودتى المتأخرة إلى منزلى .. أحياناً كنت أدفعه بقدمى بعيداً بقسوة .. لا أدرى لما يومها أحسست بالشفقة نحوه .. عبثت فى محفظتى و أخرجت نصف ما معى من نقود قليلة و مددت يدى لأعطيها له .. رفع عينيه يرى من يحسن إليه و هو يدعو له .. عندما رآنى تملكه الرعب فوراً و أسرع بالزحف بعيداً عنى .. رميت النقود بجانبه و أنا أطمئنه .. أرتقيت السلم و هو يتابعنى بنظراته دهشاً .. دخلت البيت بسرعة و رميت نفسى على أقرب كرسى .. رحت فى غيبوبة عميقة أستيقظت منها فجأة على صوت طرق على الباب .. ظننت أنه من أثر الدخان .. أغمضت عينى مرة ثانية لكن عاد الطرق بعدها بدقيقة .. طرق خفيف على الباب تظن من خلاله أن الطارق طفل صغير .. نهضت بصعوبة .. تساءلت مستغرباً عن القادم فى مثل ذلك الوقت المتأخر .. فتحت الباب و أنا أتثاءب .. و بمجرد أن رأيتها أمامى .. طار النوم من عيني فى لحظة .. تبخرت سيجارة الحشيش و معها كل ما شربته فى ثوانى .. كانت هى من تقف على الباب .. لم أصدق عينى .. ترتدى فستان طويل منزلى من الصوف و فوقه شال أسود ثقيل يغطى كتفيها .. تنفخ فى يدها من البرد و هى

تتلفت حولها قليلاً .. رغم كل خبرتى فى عالم النساء أرتبكت .. للحظات لم أدرى كيف أتصرف .. و هى أيضاً لاحظت ذلك فتراجعت خطوة للخلف .. أعتذرت عن مجيئها فى وقت غير مناسب .. تكلمت بسرعة عن سبب زيارتها المفاجئة .. مشكلة ما فى الحمام عندى حيث يتسرب الماء منه إلى شقة جارى الذى يقطن أسفل منى كما زعمت .. قالت أنها أحضرت السباك عدة مرات لمعالجة المشكلة دون أن يجدنى .. طلبت منى بأرتباك أن أترك لديها نسخة من مفتاح الشقة حتى يستطيع السباك مواصلة عمله عندما يأتى فى المرة القادمة .. تراجعت بعدها خطوات للوراء بأنتظار ردى

تخيلت أن كلامها مجرد حجة لتقابلنى .. كان يمكن أن تنتظر للصباح .. أستردت بعض وعيى و صممت على أنتهاز الفرصة .. فتحت الباب أكثر طالباً منها أن تدخل إلى أن أبحث عن المفتاح الذى أنسى دوماً مكانه .. وقفت لثوان مترددة .. كان الجو بارداً خارج الشقة و هى تضم الشال حول كتفيها بقوة لتقاوم برودة الجو .. تقدمت نحو الشقة و لكنها توقفت خلف الباب من الداخل بخطوة .. أشرت إلى كرسى فى الصالة كى أقطع عليها الطريق .. عندما رأت أصرارى دخلت مضطرة .. و بمجرد أن جلست حتى أغلقت الباب

جلست على طرف الكرسى .. تتلفت حولها .. تظاهرت بالبحث عن المفتاح الذى كنت أنسى مكانه فعلاً .. أطحت بزجاجة بيرة كانت تستقر

بأهمال وسط الصالة إلى وراء الكرسى .. ذهبت للمطبخ بعد أن عرضت عليها أعداد كوب من الشاى .. رفضت فى البداية و لكنى ألححت عليها .. بصراحة أنا الذى كنت بحاجة للشاى لأفيق .. عندما رجعت أمسكت بكوب الشاى فى يدها دون أن تشربه .. تستمد من حرارته بعض الدفء .. بدأت بالكلام معها .. كلام عام فى البداية عن البيت و الجيران .. كانت ترد بتحفظ .. بعد قليل تفاجئت بها تسألنى : أنت ممثل ؟

ضحكت ضحكة قصيرة .. قلت لها بخجل : يعنى .. أدوار ثانية

رأيت عيناها تلمعان .. أبتسمت بتلقائية جميلة .. أخبرتنى أنها تحب التمثيل جداً .. أردفت بحماس : تمنيت كثيراً أن أكون ممثلة .. لم أشاهد أى أفلام فى حياتى فى القرية لأننا لم نمتلك تلفاز فى البيت .. لكنى شاهدت الكثير عندما جئت إلى هنا .. المرحوم أصطحبنى مرة واحدة للسينما .. لكنى لم أشاهد لك أى فيلم

قالت الجملة الأخيرة بخجل .. سكتت لدقيقة .. أخبرتها أنى ممثل مسرحى و ليس لى أدوار تذكر فى السينما .. هزت رأسها متفهمة .. تبادلنا الحديث بعدها .. أو بمعنى أصح هى تتكلم و أنا أستمع .. تركت لها الفرصة لتعبر عما بداخلها .. كان رأيى دائماً أن أكبر عيب فى المرأة لسانها .. و أنها عندما تفتح فمها تفقد نصف جمالها .. لكن هى كانت مختلفة .. أجمل مائة مرة و هى تتكلم .. تحكى ببراءة طفلة صغيرة .. تضحك بدون

قصد عندما تتكلم عن موقف طريف .. و عندما يأتى ذكر مشكلة تنظر للأرض بخوف غريزى .. تحرك يدها كثيراً فى تناغم عندما تتحدث فتكمل حركة يدها كلامها .. لو رأيتها لشعرت أنك تقف أمام لوحة جميلة .. كل شئ فيها جذاب .. نبرة صوتها .. تعبيرات وجهها .. عفويتها .. أسندت رأسى على يدى أستمتع بجمال تلك السيمفونية المتكاملة دون أن أقاطعها برغم أن معظم كلامها كان عن مشاكلها .. تكلمت عن زوجها الذى رحل بعد أن أوصى لها بالبيت القديم فى وصيته .. لكن أولاده من زوجته الأولى ما زالوا يهددونها .. قاموا برفع قضية ضدها بزعم أن والدهم لم يكن فى كامل وعيه عندما كتب وصيته .. لو كسبوا القضية ستجد نفسها فى الشارع خاصة بعد وفاة والدها .. ظهر الحزن واضحاً فى صوتها.. رأيت بعض الدموع تترقرق فى عينيها .. أبعد هى ما تكون عن المشاكل .. لا تدرى لماذا يكرهها أولاد زوجها .. تتمنى أحياناً لو تترك لهم البيت و تهرب بعيداً .. زوجها ترك لها أيضاً بعض الذهب و النقود تستطيع أن تبدأ بهم حياة جديدة فى أى مكان آخر .. لكنها تخاف كثيراً من الأقدام على خطوة كتلك بسبب قلة خبرتها .. حياتها أنحصرت من بيت أبيها إلى بيت زوجها .. مر الوقت سريعاً دون أن أشعر .. بعدها بفترة أطرقت للأرض بخجل و أعتذرت لأنها تكلمت كثيراً .. سألتنى بعدها عن المسرح و التمثيل .. لاحظت أنها قد خلعت الشال الذى على كتفها بعد أن شعرت ببعض الألفة .. ناولتها

جريدة قديمة تظهر فيها صورة لى مع ممثل معروف للمسرحية التى أمثلها حالياً .. لم تتعرف على طبعاً .. كنت أرتدى زي أحد الشيوخ .. سألتنى بحماس عندما رأت الصورة عن الدور الذى أقوم به

فى هذه الفترة كنت فى بداية طريقى الحقيقى نحو النجاح .. لأول مرة أحصل على دور كبير .. دور ثان فى مسرحية جديدة لكنه دور محورى دفعنى نجاحى فيه إلى بداية طريق الشهرة وقتها .. كنت أتقمص شخصية شيخ مناضل تحدى سلطان ظالم بشجاعة و مات شهيداً يدافع عن رأيه .. شخصية تاريخية مشهورة .. لا تضحك .. أعلم ما يدور فى ذهنك .. ذئب فى ملابس شيخ .. تناقض ساخر .. و لكنه كان أكبر دور أمثله وقتها منذ بدأت مشوار التمثيل من سنين طويلة .. قرأت كثيراً عن ذلك الشيخ .. أحضرت كل الكتب و المراجع التى تتناول سيرته .. أكتشفت أنه عالم كبير لم أكن أسمع عنه من قبل .. بهرنى بأرائه و علمه .. أحترمته جداً عندما قرأت عن مواقفه الجريئة و شجاعته .. بدأت أتدرب على الدور .. كنت أقف أمام المرآة يومياً محاولاً أتقان الدور .. أعيد المشاهد أكثر من مرة على المسرح و قمت بالكثير من البروفات لدرجة أنى حفظت معظم دورى غيباً و لم أعد بحاجة إلى ملقن

ضحك فجأة و هو يقول : آه لو رأيتنى بالجلباب الأبيض و العباءة .. و عمة الرأس و اللحية السوداء التى يغزوها الشعر الأبيض .. لم يكن أحد

ليعرفنى .. حتى المخرج عندما رآنى أول مرة بالزى لم يتمالك نفسه من الضحك صائحاً : من يراك الآن يظن أنك شيخ .. و لا يدرى أنك سكير و ذئب نساء . لكنه كان مقتنع جداً بى .. كنت أنام أحلم بالدور و أستيقظ لأتدرب على كلمة .. كل تعبير .. كل أيماءة .. و كل حركة .. يقولون أحياناً أن الممثل يندمج فى الدور الذى يمثله فينسى ذاته .. يعيش الدور و يتنفسه .. يتقمصه بكل حواسه .. لدرجة أنه يؤثر عليه فى عالم الواقع .. أتذكر ممثل معنا ظل يقوم بدور الملك فى مسرحية لفترة طويلة .. حتى أنه عندما يسكر و يضايقه أحد كان يتوهم أننا حراسه فيشير لنا قائلاً : أقتلوا هذا الوغد .. و ممثلة أخرى كانت تذرف بالفعل دموعاً حقيقية عندما يقتل أبنها فى أحد المشاهد على المسرح .. لم أشعر من قبل بأحساس التقمص هذا .. أخرج من المسرح عادة فأنسى كل شئ و لا أفكر سوى فى النساء و الدخان .. و لكنى عرفت معنى التقمص لأول مرة مع هذا الدور .. لدرجة أنه بدأ يؤثر على حياتى بشكل ما .. بعد شهرين من بداية المسرحية أكتشفت أننى أبتعدت كثيراً عن السهرات غير البريئة .. لم أعد أدخن مثل السابق .. بدأت أنجذب لقراءة الكتب الدينية و أنا لم أقرأ فى حياتى أى كتاب من أى نوع منذ تخرجى سوى الأدوار التى تعرض على .. لم أقص عليها طبعاً كل هذا الكلام .. كانت تبتسم و هى تسمعنى و لم تحاول مقاطعتى .. تكلمنا بعدها عن طموحاتنا و أحلامنا .. ضحكنا كثيراً .. مر الوقت سريعاً دون أن

نشعر به .. سادت بعدها فترة صمت قصيرة .. لمحتها تعيد أحكام الشال مرة أخرى فوق كتفها .. برودة الجو بدأت تشتد .. أدركت أنها تستعد للمغادرة .. لن أضيع الفرصة .. سأصاب بالجنون بالتأكيد إذا أفلتت منى .. دار عقلى بسرعة .. أستأذنت منها لدقيقة .. عدت و معى ألبوم صور أعتز به كثيراً .. يحتوى كل صورى على المسرح .. كان واضحاً أنها تحب التمثيل بالفعل .. عندما بدأت أقلب فى الصور تطلعت إليها بحماس طفولى شديد .. بدأت تضحك و تعلق على كل صورة .. تشير على كل ممثل مشهور تميزه .. بسرعة جلست بجوارها .. وضعت يدى حول كتفها بحركة بدت عفوية و أنا أشير بها على كل صورة و أسرد قصتها .. قصصت عليها كثير من الحوادث و النوادر التى تحدث على المسرح .. سألتنى إن كانت تصلح كممثلة .. أخبرتها بثقة أنها ستكون ممثلة عظيمة .. أنتهزت فرصة زيادة الألفة بيننا فقمت أحضر بعض علب البيرة من المطبخ .. ناولتها واحدة .. نظرت لها بدهشة و شك .. ضحكت وقلت مازحاً أن كل ممثلة عظيمة تشرب مثلها .. كما أنها لم تتناول الشاى الذى أعددته و لست أحب بالتأكيد أن يرى ضيوفى أنى بخيل .. قطعت عليها فرصة التراجع و فتحت لها أحد العبوات .. أنسكب جزء منها على ملابسها .. تطلعت إلى العلبة بفضول حذر ثم شربت منها بتردد و أنا أواصل تشجيعها بهدوء .. و بسرعة صعد الدم إلى وجنتيها .. غاصت فى الكرسى أكثر و هى تتطلع

للصور و تطلب منى أن أحكى قصة كل صورة .. لففت ذراعى كله حولها .. بدأ لسانها يثقل قليلاً بعد تناولها للبيرة التى لم أخبرها طبعاً أنها مركزة .. تأملت شعرها الناعم .. رفعت الشال من على كتفها دون أن تعترض .. بدأت أمرر يدى على شعرها .. أقتربت منها حتى ألتصقت بها بينما أغمضت هى عينيها فى أستسلام .. أحسست بأنتفاضة خفيفة تسرى فى جسدها و أنا أحتضنها .. طبعت أول قبلة على خدها بينما تتسارع أنفاسها .. ثم قبلات حارة على رقبتها و يدها .. لم تقاوم لذة الشهوة التى أدرك بخبرتى أنها حرمت منها طويلاً .. تهاوت بين يدى بلا مقاومة ..غرقنا فى النشوة و أنا أقبلها بعنف .. أمسكت بيدها و قدتها نحو غرفة النوم و هى تمضى معى بلا مقاومة

و هنا توقف صاحبى .. أشعل سيجارة و أخذ ينفثها بتوتر .. تركته حتى أنهاها دون أن أقاطعه .. رمى السيجارة و أطفأها بقوة بقدمه .. سألته بلهفة : ماذا حدث بعدها ؟

قال بضيق : لم يحدث شئ .. هذا هو الغريب .. ما حدث بعدها أمر غريب حقاً لم أكن أتصوره .. أخيراً المراة التى سعيت لأسابيع وراءها بين ذراعى .. تتهاوى فى حضنى .. مستسلمة تماماً .. وسط كل هذا داهمنى شعورغريب لم أعرف مصدره .. شعور بعدم أرتياح .. قلق .. أحساس يتسلل إلى نفسى ببطء شديد و لكن بثبات .. شعرت بأحتقار لما أقوم به .. لن

تصدقنى و لكن هذا بالضبط ما حدث .. كنت فى بداية أحساسى بالنشوة عندما وقعت عينى على كتاب من تلك الكتب التى أشتريتها عن الشيخ الذى أتقمص دوره .. أنتابنى أحساس مزعج بالخجل .. دفعت بالكتاب بعيداً أسفل السرير .. لكن تفكيرى ظل معه .. يتمرد على .. حاولت أنساه .. أتناساه .. أتجاهله .. حاولت أن أعود للحظة المتعة و لكن أفكارى عادت إليه .. ثلاث أشهر كنت أمثل شخصيته .. أمتص أفكاره .. أقدمها .. أعيشها .. أعبر عنها .. إلى أن أصبح جزء منى لا يتخلى عنى حتى فى أوقات راحتى .. كنت من ساعات قليلة فقط أقف على خشية المسرح أتكلم عن الحق و الفضيلة و الشجاعة .. و ها أنا ذا الآن فى أحضان أمرأة ! .. شتان الفارق و المعنى .. و أشتعل صراع داخل نفسى .. صراع خاص بين شخصية ضعيفة مستسلمة تجرى وراء شهوتها .. و أخرى قوية صلبة على أستعداد لتقف وحيدة أمام العالم فى مقابل كلمة حق .. و بدأ صراع آخر بين الحرام و الحلال يشب بداخلى .. حاولت أخماد هذا الصراع و عندما نجحت أكتشفت أنى أخمدت شهوتى أيضاً .. أفقت .. أنتبهت .. و عندما فعلت لم أكن وقتها الممثل المغمور الذى يجرى خلف متعته .. كنت أتمنى حقاً أن أعود لنفسى .. أعود لأكون هذا الأحمق العابث مرة أخرى و لكنى فشلت .. بداخلى ظهرت شخصية شيخ قوى حازم مستعد لمحاربة العالم كله بثبات من أجل مبادئه .. شيخ لا يضعف أو ينهزم أمام شهواته ..

نظرت للمرأة بجانبى و لم أعد ألحظ أنها جميلة .. بعدت عنها .. لاحظت هى أنى تغيرت .. توقفت عن ملامستها .. غابت حرارة جسمي .. سألتنى عن سبب تغيرى .. ما لا أنساه أبداً هو أنى سحبتها بقسوة من يدها لكى تنهض .. خرجنا من غرفة النوم .. أشرت إلى الباب و أنا أطردها .. وقفت لثوانى مصدومة .. ألتقطت ملابسها بسرعة عندما رأت أنى فى منتهى الجد .. بان عليها الغضب .. أتجهت نحو الباب مسرعة بعدما طلبت منها أن لا تأتى هنا مرة أخرى .. فتحت الباب على مصراعيه و قبل أن تخرج ألقت نظرة على علب البيرة الملقية بأهمال فى كل مكان .. نظرت لى قائلة بأحتقار : تمثل على دور المحترم .. و أنت مجرد وغد سكير .. لأول مرة أدع رجل غريب يلمسنى .. و لكنه خطئى بالتأكيد و لن يتكرر .. خرجت و أغلقت الباب وراءها بعنف .. لم أنم تلك الليلة و ظللت ساهراً طوال الليل أفكر .. غمرنى شعور بالراحة لم أعهده من قبل .. كنت متأكد أنى قمت بالصواب لأول مرة فى حياتى

توقف قليلاً ليشعل سيجارة أخرى قبل أن يكمل :

تعمدت بعدها لاحقاً أن أعود للبيت متأخراً .. بعد يومين سمعت أن أولاد زوجها الاول كسبوا قضيتهم ضدها .. أستعانوا ببلطجية لطردها و رمى أغراضها خارج البيت .. عرفت أنها لم تجد أحداً يقف بجانبها أو حتى يساعدها خوفاً من أولاد زوجها .. سألت عليها لكنها أختفت ..

أختفت تماماً .. أنشغلت بعملي .. بعدها بفترة قصيرة كتب ناقد مهم عن دوري و أشاد به .. قال أنني من أفضل الممثلين الذين رآهم تقمصاً للشخصية التى أمثلها .. ربما أحساس التقمص ذلك هو سبب شهرتي و سر نجاحي بعد ذلك في كل أعمالى .. تحصلت بعدها على دور أكبر .. و نجحت فيه .. و بدأت أعرف طريق الشهرة .. غادرت البيت و أنتقلت لمكان آخر ..أنشغلت بالعمل و عالم الشهرة الذى بدأت أطرق أبوابه .. سنوات إلى أن أصبحت نجماً يشار إليه بالبنان .. لكنى لم أنساها يوماً أو تمحي ذكرى تلك الليلة من ذاكرتى الهشة .. لسنوات طويلة ظللت أفتش عنها بلا فائدة .. بحثث عنها كثيراً .. أكثر مما تتخيل .. مستعد الآن لأن أدفع نصف عمرى و كل نقودى كى آراها مرة أخرى .. أشعر بها أمامى .. أرى أبتسامتها و ألمس يدها البضة مجدداً .. عندما تعاودنى ذكرى تلك الليلة .. أحياناً ينتابنى أحساس شديد بالندم .. أضعت فرصة صعب أن تتكرر مع أمرأة لا تقابل مثلها في حياتك إلا مرة واحدة .. لكن صدقنى وقتها كنت فى حالة غريبة .. حالة سلام مع نفسى و مع كل شئ .. و شعرت أن ما قمت به الصواب

سكت قليلاً فأنتهزت الفرصة لسؤاله :

هل لو عاد بك الزمن لتلك الليلة مرة أخرى .. هل كنت ستنتهز الفرصة ؟

– لا أعتقد أن ذلك كان سيغير من الأمر شيئاً .. فى تلك الفترة كنت فى حالة غريبة كما قلت لك .. حالة صفاء تام .. تصالح غريب مع ذاتى .. تغيرت فى تلك الفترة كثيراً للافضل .. و كنت أنساناً جديداً لفترة من الزمن ..

ثم سكت قليلاً قبل أن يردف : و لكن للأسف تلك الفترة لم تستمر لمدة طويلة ..

سالته بتعجب : لماذا ؟

ضحك بتلقائية و هو يجيبنى : لأن المسرحية أنتهت و الدور الذى حصلت عليه بعدها مباشرة كان دور مجرم كبير .. بلطجى و قواد ..!

السيارة

كان أول من يشترى سيارة فى قريتنا

قبلها أعتدنا أن نسير على الأقدام أو نستخدم الدواب فى التنقل .. عربة واحدة فقط كانت تمر على القرية بأنتظام كل صباح .. سيارة نقل متهالكة كانت فى الأصل سيارة عسكرية لنقل الجنود أشتراها صاحبها الأسطى عبود من مخلفات الجيش .. غطى الكابينة الخارجية لتتحول إلى صندوق كبير يتسع لستة أشخاص و لكنه يحشر بها عادة عشرة ركاب .. تمر السيارة على القرية عدة مرات طوال النهار لنقل الركاب من قريتنا إلى مركز المدينة حيث الخدمات التى لم تتوفر لدينا ، و خلت قريتنا منها .. يستغرق الطريق نصف ساعة تجلس فيها محنى الظهر تسمع صوت تكسر عظامك عند أى مطب .. تتشبث بمقعدك جيداً حتى لا يطير جسدك فى فراغ العربة عند أى منعطف حاد .. معظم الركاب عادة يستهدفون الذهاب إلى المستشفى الكبير فى المدينة حيث لا يتوافر مستشفى قريب فى قريتنا النائية .. أو للتوجه إلى أسواق الملابس و الخردوات المنتشرة بكثرة هناك

أمى تقول أنى شخص حقود .. تعرفنى جيداً .. أعترف بهذا .. و لكنى عالجت نفسى بنفسى من فترة .. و ظننت أنى تخلصت من تلك الصفة حتى جاء محمود بسيارته

محمود أبن عمى .. كلانا ورث بيته عن أبيه .. بيت كل منا ملاصق للآخر .. تربينا معاً منذ الصغر .. ذهبنا لنفس المدرسة .. و لكنه أكمل تعليمه و تفرغت أنا لرعاية الأرض .. أرضه التى ورثها من أبيه لم تكن كبيرة و لهذا فضل الوظيفة بعد أن ترك زراعة الأرض لأخيه الأصغر .. بينما ورثت عن أبى أرضاً ضخمة أظل طوال النهار أشرف عليها و أعمل فيها .. نستيقظ كلانا فى الوقت نفسه فى الصباح .. أذهب إلى الحقل بينما ينتظر هو سيارة الأسطى عبود للذهاب إلى عمله فى المدينة حيث يعمل كمحاسب فى شركة كبرى هناك .. هكذا ربط القدر بين حياة كل منا .. حتى عندما تزوجنا .. أخترنا أختين من نفس العائلة .. و تزوجنا فى سنة واحدة ..

ربما لم أكن لأشعر بالغيرة لو لم يسكن بجوارى .. أتذكر جيداً يوم جاء بسيارته .. حدث نادر فى قريتنا المتواضعة .. أخترقت السيارة أزقة قريتنا الضيقة المتعرجة بينما دفع الفضول البعض للوقوف فى النوافذ و على أسطح البيوت للفرجة عليها .. حرص أطفال القرية على الركض ورائها و تسلق هيكلها المعدنى اللامع بينما يواصل محمود دفعهم عنها برفق .. عمدة القرية نفسه جاء ليشهد السيارة التى أصبحت حديث الساعة .. أشتراها محمود من أحد عملائه فى الشركة الذى أضطرته الظروف للسفر فجأه .. أصبحت مثار أهتمام الناس و أحاديثهم .. عرفت لاحقاً أنه باع جزءاً من أرضه لأخيه حتى يوفر ثمنها .. أنقلبت حياته بعدها .. و معها حياتى

قبل مجئ محمود بسيارته أعتدت أن أكون محط أنظار أهل القرية .. المثل الذى يتطلع إليه الجميع بحسد .. رغم صغر سنى ، لكن أرضى هى الأكـبر .. أكبر حتى من أرض العمدة .. محصولى هو الأفضل دائمـاً لأنـى أزرع و أشـرف على الأرض بنفسى .. و بيتى هو أوسع بيوت القرية .. كان هـذا هـو المجـال الذى لم ينافسنى فيه أحد .. و لا حتى محمود المتعلم .. يحسدنى الجميـع .. صحيح أنى لا أحب الحسد ، و لكنى أحـب أن أكـون موضـع أهتمـام النـاس و أشعر بالسعادة لذلك .. حتـى تغـير كـل شئ يـوم جـاء محمـود بـسيارته .. بفضلها أصبح سيد القرية غير المعلن .. بمجرد أن يخرج كل صباح للتوجه إلى عمله حتى ينتهز البعض الفرصة للذهاب معه إلى المدينة لقضاء مـصالحهم .. محمود طيب يخجل من رفض طلب أحد .. عكسى تماماً فأنا لا أعرف الخجل .. يقوم بأصطحاب مرضاهم أحياناً إلى المستشفى فى المدينة .. يحمل أغراضـهم الثقيلـة لنقلـها مـن مكـان لآخـر .. و عنـد أقامـة أى عـرس يتطـوع بزفـاف العروسين بسيارته بعد أن يقوم بتزيينهـا بـشكل بـارع .. بـل و نقـل الأثـاث أحياناً إلى بيت العروسة .. لا يوجـد فـى القريـة بيـت لم يحتـاج لمحمـود .. أفضاله على الجميع .. أصبح لديه فى وقـت قـصير مكانـة كـبيرة عنـد النـاس تضاءلت معها مكانتى .. ينهضون من مجالسهم عند أقترابه منها .. يحيونـه بحرارة و لا يتكلمون إلا إذا بدأ الكلام .. حتى العمدة بدأ يصادقه فهو يستغله أحياناً للذهاب إلى المركز فى الحالات الطارئة

لا أخفى أنى شعرت ببعض الغيرة في البداية .. و لكنى تجاهلت هذا الشعور ولم أهتم بالامر كثيراً .. و لكن بضعة حوادث لاحقة قضت على الهدوء النسبى بداخلى .. بدأت بزوجتى ذات صباح و أنا أراها تتطلع من النافذة بأهتمام .. تشاهد أختها تخرج بصحبة محمود و أولادهم بعد أن حملوا الكثير من الأغراض و كدسوها فى السيارة .. علمنا أنهم فى طريقهم لأحد أقاربنا فى مدينة ساحلية قريبة للأستمتاع باليوم هناك هرباً من الحر الخانق الذى يجثم على القرية .. لمحت نظرات الحسد بشكل واضح على وجه زوجتى الجميلة .. تذكرت آخر مرة ذهبنا فيها إلى هناك .. أحتجنا للأنتقال إلى مركز المدينة أولاً و الأنتظار هناك طويلاً لأستئجار سيارة أخرى للذهاب إلى المدينة الساحلية ثم أستئجار سيارة أخرى لقريبى و منها للشاطئ .. ضاعت ساعات فى التنقل و ووصلنا هناك مرهقين تماماً بعد أن تحطمت أضلاعنا من حمل الأغراض .. أعتدنا بعدها يومياً رؤية محمود يصطحب أولاده لمدرسة القرية الوحيدة بينما تخوض أبنتنا الوحيدة الوحل مع خادمتها للوصول إلى الكتاب .. و فى الأعياد يصطحب محمود أسرته للتنزه فى المدينة بينما يصعب علينا الأمر بسبب صعوبة المواصلات فى مثل تلك الأوقات .. و لكن الحادثة التى قصمت ظهر البعير حقاً كانت عندما قررت الأختان زيارة خالهما المريض فى المدينة .. ركبنا مع الأسطى عبود بعد أن أتفقت معه على دفع أجرة السيارة كاملة حتى لا يزعجنا راكب ..

حملنا بعض الهدايا و أصنافاً كثيرة من الطعام أخترناها بعناية .. تأخر الحاج عبود علينا .. عندما أنطلقنا أخيراً كانت السيارة تتمايل بشدة على الطريق و كأنها فى حلقة ذكر .. مما زاد من الامر سوءاً تعطلها فى منتصف الطريق و لم تفلح محاولات الأسطى عبود لأصلاحها .. لساعتان وقفنا نترقب أى سيارة مارة و الشمس تلهب أجسادنا .. عندما وجدنا أخيراً سيارة تتسع لأغراضنا كانت سيارة نصف نقل و أضطررنا للركوب فى الخلف و الهواء الساخن يلفح وجوهنا .. وصلنا إلى المدينة قرب أذان الظهر و نحن نلهث من التعب .. الطامة الكبرى عندما أكتشفنا أن محتويات الهدايا التى تعبنا فى حملها تبعثرت و أختلطت محتوياتها .. بينما كان محمود و زوجته هناك من الصباح ينعمون بالراحة .. عند المغادرة لم تستطع زوجتى الحركة بسبب حملها .. لم تجداً بداً من أن تستقل سيارة محمود مع أختها فى العودة .. بينما تظاهرت أن لدى بعض الأشغال فى المدينة حتى لا أركب سيارته .. و عدت للقرية متأخراً و منهك تماماً

ظلت زوجتى طوال تلك الليلة تحكى عن سيارة محمود الواسعة .. تصف كيف كانت تجلس فى الخلف كملكة على المقعد المريح .. و شنطة السيارة التى كانت تسع للكثير من الأغراض .. وصفت مدى سهولة الرحلة و أستمتاعها بالنظر من نافذة العربة .. ليومين ظلت تلمح .. و عندما لم تجد أذناً صاغية .. بدأت تحتد و تشكو .. طلبت بشكل مباشر أن نشترى

سيارة أيضاً .. فنحن لسنا " أقل من أى أحد " كما قالت .. و لكنى لم أستطع موافقتها .. لم يحن موعد حصاد المحصول بعد .. و نقودى التى كنت أجنيها أعتدت أن أشترى بها أرضاً جديدة .. لم يعد معى مال .. و حتى لو معى .. كنت أجهل تماماً قيادة السيارات بل و أخاف من الأمر .. حاولت أن أوضح لها كثيراً و لكنها لم تقتنع .. و حرصاً على صحتها تجنبت الخوض فى هذا الموضوع حتى لا أدخل معها فى أى جدال يرهقنى و يؤلمها

رقيقة هى .. و لكنها عنيدة .. و الغيرة عندما تتملك المرأة تتحول إلى كائن آخر يصعب أيقافه .. تعلم ضعفى نحوها .. ليس فقط لأنى أحبها .. و لكن بسبب حملها المقلق .. تذكرت يوم زواجنا .. لا أخجل أن أقول أن محمود هو السبب .. عندما خطب بدأ الناس يتكلمون عن حسن أختياره و جمال خطيبته .. علمت بعدها أن لخطيبة محمود أخت أصغر و أجمل .. لم أتردد و تقدمت لخطبتها بعدها بيومين فقط .. نعم قمت بذلك .. لم أكن رأيتها من قبل .. و لكنى بمجرد أن رأيتها حتى تحولت إلى أنسان آخر .. حياتى كلها كانت بين الأرض و مخازن الحبوب التى أمتلكها .. قلبى لا يتسع إلا للمال و النفوذ .. لم أتخيل يوماً أن هناك مكان فى قلبى يتسع للحب و العشق .. و لكنى عشقتها .. و هى أيضاً بادلتنى نفس الشعور .. إلى الآن لا أتصور كيف كنت أعيش قبلها .. و لا أتخيل حياتى يوماً بعيداً عنها .. أخاف عليها كثيراً و أحاول أرضاءها بشتى الطرق .. و هى أيضاً تسهر

على راحتى .. تقوم بأى شئ لأرضائى .. تسبقنى كل صباح لتودعنى بـشوق عند باب الدار فأكتسب قـوة تكفينـى لـشاق اليـوم .. تـساعدنى فـى تغـيير ملابسى عند العودة و تهتم بالـدار جيـداً ليبـدو دائمـاً فـى أحـسن صـورة و تعتنى بأمى المريضة دون طلب منى .. أنجبنا بنتاً بعـد عـام مـن زواجنـا .. فرحت بها كثيراً .. و لكـن الحمـل أثـر علـي جـسدها الـضعيف .. حملـت بعدها مرتين و أجهضت .. و لأربع سنوات كاملة لم تحمل .. تحملت ضغط أمى و عائلتى لأتزوج مرة أخـرى لأنجـاب ولـداً يحمـل أسمـى .. فـى ليلـة جاءتنى باكية تتوسل إلى أن أتزوج بعد أن تأخر حملـها .. غـضبت و ثـرت عليها .. لا أريد أن يأتى الولد على حسابها .. لـن تـستطيع أمـرأة أن تحـل مكانها عندى حتى لو كانت ستأتى لى بألف طفل .. زرنا العديد من الأطبـاء بلا فائدة .. حتى حملت أخـيراً بعـد سـنوات المعانـاة .. تعليمـات الطبيـب جاءت صارمة .. يجب توفير كل وسائل الراحة لها و للجنين غـير المـستقر .. أى مجهود عنيف سيؤثر على سلامتها قبل الطفل .. جلبت لها خادمة و كنت أعاتبها بشدة إذا قامت بأى مجهود فى البيت .. و لكنها ما زالت تصر أن تستيقظ كل صباح لتودعنى .. فى الفـترة الأخـيرة عنـدما ثقـل حملـها و وصلت إلى الشهر السابع كانت تستند على الحوائط حتـى توصـلنى إلى بـاب الدار .. لا أغادر حتى أملى عينى من وجهها ، و أيقظ الخادمة لرعايتها

لا أخفى أن كلام زوجتى حرك شيئاً بداخلى كنت أظنه أختفى من فـترة

.. شعور غامض يلازمنى منذ الصغر لا أدرى كنهه .. و لكنه يتعلق برغبتى دائماً أن أظل الأفضل .. أمى تقول أن أسمه حقداً .. لم أكن أصدقها .. بدأ ينتابنى هذا الشعور للمرة الأولى فى أحدى سنوات دراستى المبكرة .. عندما أتى أحد زملائنا بقلم من الحبر السائل ذهبى اللون .. أبهرنا القلم و الأضواء تنعكس عليه .. تحرك الشعور بداخلى لأول مرة .. كنت ضعيفاً وقتها و لم أستطع مواجهته .. أنتظرت فرصة خروج الطلاب فى الفسحة و تسللت للفصل .. أخذت القلم من حقيبة زميلى بعد أن راقبته و هو يضعه بها .. لم أسرق القلم .. لم أكن أريده .. أكتفيت فقط بأن أكسره إلى نصفين .. ثم رميته خارج سور المدرسة .. شعرت بالأرتياح .. تعودت على تلك الأمور بعدها .. عندما يأتى أحدهم بملابس جديدة مثلاً .. أتعمد سكب الحبر عليه .. أو أطلب منه مشاركتنا لعب كرة القدم و أجذبه من ملابسه بشكل يبدو عفوياً أثناء اللعب فأمزقها بشدة .. تكررت حوادث كثيرة مشابهه .. و عندما كبرت توارى هذا الشعور اللعين قليلاً و ظننت أنى تخلصت منه قبل أن يعود ثانية

فى تلك الليلة تشاجرت مع زوجتى .. رجعت للحديث عن السيارة و لأول مرة تصفنى بالجبن .. ثرت عليها و عنفتها بحدة .. تركت البيت غاضباً رغم برودة الجو الشديدة فى الخارج .. كنت على أى حال فى طريقى للمخزن لحراسته .. أعتدت أن أقوم بهذا عدة ليال بعد جمع المحصول ..

تناولت بندقية والدي القديم و خرجت من المنزل .. لأول مرة لا تودعنى عند الخروج .. لم تعتاد القيام بهذا مهما كانت غاضبة منى .. مشيت فى الشارع المظلم ساخطاً على كل شئ .. تفاجئت بسيارة محمود تسد مدخل الشارع أمامى .. عادة يصف سيارته أمام منزله .. و لكنى حرصت فى الفترة الأخيرة أن أرش كثيراً من الماء أمام المنزل حتى تحولت الأرض إلى بركة ماء صغيرة .. لم أكن أريد رؤيتها أمام بيتى .. تذكرت لرؤيتها ما حدث للتو بينى و بين زوجتى .. و كل خلافاتنا فى الآونة الأخيرة .. غلت الدماء فى عروقى .. قطعة الحديد الملعونة تلك هى السبب .. غمرنى ذلك الشعور الغامض بقوة .. كبته طويلاً حتى تفحل .. أقتربت منها و فى لحظة غضب ركلت هيكل السيارة بقدمى بقوة .. أفزعنى الصوت العالى الصادر منها .. جفلت .. تراجعت .. خشيت أن يسمع محمود أو أحد من الجيران الصوت .. تسمرت فى مكانى للحظات و لكنى لم ألحظ أى حركة .. النوافذ مغلقة و السكون التام يعم المكان .. الليلة شديدة البرودة و الكل يحتمى فى داره تحت دفء الأغطية خاصة أن الوقت متأخر .. تجرأت أكثر .. تملكتنى فكرة مجنونة شقت طريقها إلى رأسى بسهولة .. نظرت للسيارة بحقد .. للحظة تخيلت هيكلها المعدنى محطماً مساوياً للأرض .. أبتسمت .. خرجت من أحلامى .. لن أستطيع تحقيق ذلك بطبيعة الحال .. و لكن لا بأس ببعض الضرر إذن .. تلفت حولى بحذر .. توجهت نحو الأطار الأيمن

.. ألتقطت سلكاً صغيراً من داخل جيبى كنت أسلك به البندقيـة القديمـة .. دفعته بغيظ مكبوت نحو الاطار .. وقفت أرقبه بنشوة و الهواء يفرغ منه .. توجهت بعدها لأطار آخر .. أفرغته مثل سـابقه فـى وقـت أقـل .. تطلعـت حولى .. السكون ما زال يعم المكان .. وقفت أتطلع إلى السيارة بعد أن شعرت ببعض الهدوء .. سيظن أن مسماراً أو حجر مدبب هو السبب .. هذه ليـست المرة الأولى التى يصاب فيها أطاره بسبب تلك الأشـياء المنتـشرة بـشدة علـى طرق القرية البدائية .. أعلم أنها تكلفه كثيراً من حيث الجهد و المال تغيير تلك الأطارات الحمقاء .. أنهيت عملي .. سرت نحو المخزن الـذى يقـع فـى نهاية القرية بهـدوء بعـد أن تلاشـى غـضبى .. مـضيت هـادئ البـال و قـد شعرت ببعض الراحة أدندن بموال قديم أحبه أقطع به الطريق الطويل الذى يستغرق عادة نصف ساعة

لم أعرف أن عند منتصف تلك الليلة ستشعر زوجتى بالتعب .. نادت على الخادمة التى هرعت إليهـا علـى الفـور .. كانـت تـصرخ مـن الألم .. هرعـت الخادمة للبيت المجاور لأيقاظ أخت زوجتى .. تطرق على الباب بعنف حتى يستجيب أهل الدار .. تكتشف أختها أن زوجتى على وشك الـولادة .. يهـرع محمود للقابلة التى تسكن فى بيت قريب منا .. يتفاجئ بعدم وجودهـا نظـراً لذهابها إلى قرية مجاورة فى ولادة أخرى مفاجئة .. زوجتى ترقـد مستـسلمة .. ينساب العرق منها .. تتلـوى مـن الأنقباضـات العنيفـة التـى تجتاحهـا ..

تتنفس بصعوبة .. يحتقن وجهها .. الطبيب أخبرنا أن حالتها دقيقة و ستحتاج لجراحة عندما يحين موعد ولادتها و لكنه لم يكن ليستشف القدر ليعرف أنها ستنجب بعد سبع .. أخت زوجتي تبكي و هي ترى علامات الحياة تختفي من على وجه أختها الوحيدة .. يقترح محمود الذهاب إلى المستشفى في المدينة .. تلف أختها عباءة واسعة على جسد زوجتي و يشدوا عليها بعض الأغطية .. تسندها الخادمة و أختها بصعوبة نحو الباب .. يستيقظ بعض الجيران على الصوت .. تقف النساء على أبواب البيوت عاجزة أمام حالتها الصعبة .. تخرج إلى الشارع و هي تسير بأعياء .. تجلس على الكرسي الخلفي و هي تمسك بوهن ببطنها المنتفخ .. لا تشعر أنها بدأت تنزف ببطء .. خيط من الدماء ينساب منها بشكل طفيف .. يدير محمود مفتاح السيارة .. تتحرك السيارة ببطء و بدون أتزان على غير العادة لبضعة أمتار .. يهبط محمود ليكتشف أن أحد أطارات السيارة فارغ .. في طريقه لأستبداله يكتشف أن أطار آخر فارغ أيضاً .. يقف عاجزاً و هو يخبط بيده على السيارة بيأس .. تبكي أخت زوجتي عندما يطلعها همساً على الوضع .. ينظر في شفقة إلى المسكينة التي تلقى مصيرها داخل السيارة .. يحاول التفكير في حل .. يطرق إلى الأرض عجزاً .. و ..

صراخ زوجتي يعلو فجأة ليشق سكون الليل .. و نزيف الدماء المتواصل بدأ يزداد

أنتحار فاشل

أحكم لف الحبل جيداً حول مروحة السقف الضخمة التى تتوسط غرفته الصغيرة .. تأكد أن الحبل يمكن أن يتحمل وزنه .. عقد بأحكام حلقة فى نهاية الحبل ثم مرر يده عبرها .. أنتهى فأفلت الحبل و تابعه و هو يتأرجح فى فضاء الغرفة .. هبط من كرسيه .. أبتعد بضع خطوات وألقى نظره أخيرة .. كل شئ أصبح جاهزاً الآن .. لم يعد ينقصه سوى لحظة تنفيذ مخططه الجنونى

تطلع للحبل المتدلى من السقف .. أغمض عينيه فى حنق .. ثوان و ينتهى الأمر .. أستهلك كل الخيارات و لم يعد أمامه طريق آخر يتسع لخطواته سوى طريق الموت .. حياته أصبحت عبء لم يعد بقادر على تحمله .. حاول كثيراً و لكن الفشل لازمه بأصرار فى كل خطوة أتخذها فراراً لواقع أفضل .. عاندته الظروف و القدر و رسمت له طريقاً ينتهى دوماً مهما تعب من حيث بدأ .. أختل توازن عربته تحت وطأة ضربات الحياة ، و ضاقت عليه الدنيا فلم يجد يداً تمتد إليه بالحل سوى يد الموت ..

و رغم أنه عزم أمره .. ما زال يشعر بقلق يسيطر عليه .. تهاوى على طرف سريره يعيد أستجماع شجاعة بدأت تفلت منه .. لم يكن قراره عشوائياً أو وليد لحظة أندفاع أو عاطفة حمقاء .. فكر كثيراً حتى أرتاح

لقرار لم يتخيل يوماً أن يمنحه حق المرور بخاطره .. لم يمتلك فى أى لحظة من لحظات حياته جرأة كافية ليتخذ قراراً بهذا الثقل ، و لكن الفشل أكسبه شجاعة لم يعهدها فى نفسه .. فشله المتواصل فى الحياة لم يكن له حل سوى أنسحاب ناجح منها .. خاض حرباً طويلة النفس أرهقته مع واقع مؤلم خرج منها كالعادة مثخن الجراح .. فقد قدرته على أستجماع قواه مرة أخرى لمعركة قادمة على أمل نصر لن يأتى .. و لم يعد لديه الصبر ليتعايش مكسوراً مع جراح تزيدها الأيام و ألسنة الناس ألتهاباً

مثل كل البشر .. كان لديه طموحات و أحلام لم تكن بالكبيرة لتثير القدر ضده .. طموحات صغيرة بمقدار حظه فى العالم .. و ليعترف .. بمقدار مواهبه أيضاً فيه

قالوا عنه أنه مهمل .. خامل .. كسول .. دوت تلك الكلمات كثيراً فى أذنه دون أن ينكرها .. طلقات أصابت سمعته المهتزة و أتهامات وجهها له الجميع لم يتبرأ منها .. يعلم أنه يمتلك كل تلك الصفات و أكثر .. صفات نمت بداخله من صغره لم يدرك قسوتها إلا متأخراً .. أمه الوحيدة التى ساندته فأقنعت نفسها و أقنعته أنه سوء الحظ .. و لكن .. لعل الحظ برئ من دمه .. يدرك أنه كسول بالفعل .. و أن كلام الناس رغم قسوته و ما به دوماً من مبالغة صحيح .. لم يفلح يوماً فى عمل و تعثر طويلاً فى دراسته .. حاول أن يثور و يغير من نفسه .. يتمرد فيتخلص من ذاته القديمة .. يرسم

خيوط جديدة غير خيوط الفشل التى سارت عليها حياته و لكن من قال أن الطبع يغلب التطبع مر بالتأكيد بمحنته .. لم يعلم تحديداً كم مرة حاول و لأى مدى توغل فى طريق مغاير .. كم مرة حملته قدماه بعيداً و و فرح بنجاحات مؤقتة فى حربه مع الحياة لأن الأمور دوماً كانت تأتى بنفس النهاية .. صحيح أنه لم يسمح لليأس أن يتسرب كمرض خبيث إليه .. واجه نفسه بقسوة مرات عديدة .. حاول أن يتخلص من تلك الصفات التى ألتصقت به حتى عرف بها و لكنه كان يعود بعد كل محاولة إلى نقطة الصفر مهما طال الأمر.. تعب من محاولاته الشاقة مع عالم يعجز عن التكيف مع متطلباته و لا تؤهله قدراته ليدور معه بنفس سرعته .. يأس من السعى وراء أحلام يدرك أن الواقع لن يمنحه الفرصة لتحقيقها .. مهمل هو لا ينكر الأمر و لكنه حاول .. و لم يعد يهمه الآن ما يقوله الناس عنه .. على الأقل لم يكن يوماً بالجبان و أختار بأرادته الطريق الأصعب .. و لديه شجاعة كافية لأنهاء مسرحية وجوده الفاشلة بالنهاية التى تشبع غرور جمهور طالما تابعها بشغف كبير ..

ما زال يشعر بتوتر لا يدرى مصدره .. شئ غامض يسيطر على أنفعالاته ينبض مع قلبه و يسرى فى عروقه فلا يستطيع أيقافه .. شعور غامض يرتجف له جسده .. لعله الخوف .. لحظة الأنتقال الأخيرة – و الأولى – لعالم مجهول لم يفر أحد من أسواره و لم تهتك أسراره بعد .. من أدراه أن

العالم الجديد لن يكون ملوثاً كسابقه .. قاسياً عليه بلا قلب كالذى فر منه .. أو لعل الأسوأ ينتظره .. رهان صعب لكنه مجبر حتى النهاية على خوضه .. أحرق كل أوراقه الرابحة و لم يعد لديه أمل فى الفوز فليغامر إذن بباقى أوراقه .. أرض جديدة يلقى نفسه بين أحضانها لن تكون أقسى عليه من الحياة وسط عالم يلفظه .. أبتسم بمرارة و هو يتذكر حياته .. ماضى تحول لشبح مفزع يترصده بأستمرار .. واقع يبادله العداء و مستقبل ينتظر ككمين معد مسبقاً لأستنزافه أكثر .. تجربته المريرة فى الحياة تدفعه للأقدام نحو أى أرض جديدة حتى لو كان الطريق الوحيد إليها يمر عبر بوابة الموت .. قصته من البداية كتبت كمأساة لم يكن لها أن تحظى بترف النهايات السعيدة .. سينهى مأساة وجوده كما يجب أن تنتهى بفاجعة ربما يصفق لها الجمهور أخيراً و تحوز بعض الرضا ، أو على الأقل بعض التقدير و الشفقة لحياة بائسة ..

نهض يذرع الغرفة قليلاً لعله يقضى على التوتر الذى يجمد أطرافه .. ترى ماذا ستكون ردة الفعل عند أكتشاف جثته .. هل تشيعه الألسن الحمقاء بالرحمة أم تصفه بالجنون .. بسخرية تتناول سيرته أم بشفقة تغلفها بعض العاطفة .. اللعنة علي كلام الناس .. على الأقل لن يتهمه أحد مجدداً بالفشل بعد أن أختار الطريق الأصعب بأرادته و نجح فى عبور جسر تنهار عند الأقتراب منه شجاعة أشد الرجال تماسكاً .. لن يشغل باله الآن

برأى الناس .. و لولا أمه لنفذ الأمر من فترة طويلة .. هى وحدها من تشغل باله فى تلك اللحظة .. مسكينة هى .. لم تسبح مع تيار كلام الناس .. ظلت على أيمانها به للحظة الأخيرة .. أيمان لا يستند على أى سبب لكنه قوى .. لو فكرت قليلاً لأدركت أنها خاطئة ، و لكنها لم تفكر به إلا بقلبها .. لا يرغب أن يتسبب لها بأى ألم و لكن .. أليس من المؤلم لكلاهما أستمراره هكذا .. ربما تدرك لاحقاً أن قراره كان صائباً ليريحها من عبء تحملته طويلاً .. كان عليها أن تيأس منه كما فعل الناس لعله يرتاح قليلاً من عذاب الذنب الذى يتملكه الآن نحوها .. كان عليها أن تتوقف عن زرع الأمل بداخلها و بداخله و تدرك مبكراً أن أرضه بوار لا تنبت سوى المرارة و الفشل ..

هز رأسه فى عنف .. لن يسمح للتردد أن يسيطر عليه فى لحظاته الأخيرة .. أستجمع شجاعته أو ما توافر منها و أقترب من الكرسى .. صعد فوقه .. بيد هربت منها الدماء وضع الحلقة حول رقبته .. مرارة قاسية يشعر بها فى حلقه .. لما تهاجمه الآن .. ماذا لو منحه العالم بعض الحظ .. و صبر عليه الناس قليلاً .. لم يكن يوماً طماعاً أو مبالغاً فى أحلامه .. فقط بعض الحظ و قليل من النجاح يكفيه ليعيد تلوين حياته بألوان سعادة لم تعرفها .. رفع عينيه للسماء بحيرة .. هل يفعلها .. أحرق كل قوارب النجاة و لم يعد لديه الطاقة للسباحة مجدداً فى بحور تملأها دوامات

الأحباط .. غصة تهاجم حلقه و رعشة تمسك بأطرافه .. هل هناك طريق آخر لم يسلكه من قبل .. حل لم يفكر فيه .. عصر ذهنه فى الأمر كثيراً من قبل ، و لم يزده التفكير سوى أيماناً بقراره .. تنفس سريعاً لعله يطرد كل خواطره .. ضيق بيده الحلقة حول عنقه .. شعر بخشونة الحبل على جلد رقبته .. أغمض عينيه بألم مرغماً ذاكرته العنيدة على أستدعاء صور من يحبهم فى لحظاته الأخيرة .. أبتسم رغماً عنه عندما مرت بذهنه صور خطيبته .. لما كتب عليه القدر أن يعشقها لهذا الحد طالما كان سيفارقها .. و أمه التى يذوب عشقاً فى أبتسامتها .. و لمسات يدها الحانية التى تمسح كل جراحه .. سيفتقد كل ذلك بالتأكيد .. اللعنة على تلك الذاكرة .. كان عليها أن تعانده و ترفض طلبه ..

أهتزت أقدامه على الكرسى فأرتجف قلبه .. تدافعت الأفكار بقوة داخل عقله .. فكر بسرعة و تساءل .. هل هناك فرصة أخرى يمكن أن ينفذ منها لحياة أفضل .. صحيح أنه خسر خطيبته و لكن يمكن أن يعوضها .. صحيح أنه فشل فى كل عمل قام به و لكن النجاح الحقيقى يأتى دوماً متأخراً .. لما لا يمنح نفسه هدنة ثانية .. فرصة للعودة يكفر بها عن هفواته و يتصالح فيها مع نفسه و العالم لعله يجد مخرجاً لأخطائه ..

أخرج رأسه من الحلقة .. نبض قلبه بعنف و هو يحدق فى الحبل المتأرجح أمام بصره تماماً .. تحسس عنقه بلا وعى .. هبط من كرسيه ..

خذلته أقدامه و لم تعد بقادرة على حمله فتهاوى على سريره يرتجف .. دفن رأسه بين كفيه يفكر .. هل يتراجع فى قراره الآن .. لم يعد يدرى .. يوشك أن يسلمه التفكير للجنون .. صحيح الحياة جميلة و لكنها ليست له .. الأنتحار هروب لا ينكر ذلك .. و لكن البديل أن يبقى ليلعن حظه مع كل صباح ، و يعود كل مساء ليلعق جراحه .. و هو لم يعد لديه طاقة لتحمل ضريبة خسائر أخرى ..

لا .. لن يتردد تلك المرة .. تنفس بعمق .. فتح عينيه .. أقترب من الكرسى بسرعة و خطا فوقه .. أمسك بالحبل لثوان ثم أحكم وضعه حول رقبته .. لن يمنح نفسه أملاً زائفاً .. و لن يقبل أن يعود ليمثل دور الرضا بحياة مثيرة للشفقة .. ما زال قلبه ينبض بعنف .. عليه أن يهدأ قدر الأمكان قبل لحظة التنفيذ .. يريد أن يغادر العالم بسلام قليلاً ما أحس به .. يغادر بطمأنينة بعد أن عاش طوال عمره يرتجف خوفاً من كل شئ حوله ..

أرتجفت قدماه فأهتز الكرسى .. ضغط الحبل على عنقه أكثر .. تسارعت نبضات قلبه و زفر أنفاسه بقوة .. نظر للأرض أسفل منه .. خطوة أخيرة باقية .. يترك جسده للفراغ و مصيره للقدر .. خطوة و يصبح كل ماضيه بلا قيمة وراء ظهره .. رفع رأسه إلى السماء .. يقولون أن المقبل على الموت يرى صور حياته قبل رحيله .. أبتسم بسخرية .. آخر ما يرغب أن

يراه قبل موته هو صور حياته الفاشلة .. ثوان و ينتهى الأمر على أى حال ..

حبس أنفاسه .. نقل قدمه نحو حافة الكرسى ببطء .. تفاجئ بدمعة تنحدر من عيناه ، هو الذى لم يعتاد أن يبكى مهما كان الألم الذى يتعرض له .. و لكنه يقف على حافة أكبر من قدرته على أدعاء الشجاعة .. ترى هل أخطأ .. تسرع كالعادة .. أندفع وراء خلاص سريع لهموم مؤقتة .. و أمه .. هل كان أنانياً عندما عزم أمره دون أن يفكر فى مصيرها بعده .. هى التى أتخذته عكازاً تستند عليه من عثرات الأيام فتهاوى بها مبكراً .. و خطيبته كيف تخلى عنها بسهولة .. الحب الذى أنتظره طوال عمره و دعا طويلاً أن يأتيه فهرب منسحباً منه بعد أول معركة واجهها .. و الناس .. لما سمح لبضع أفواه حمقاء أن تحكم على حياته و تقود حياته بجنون لتصل بها إلى هوة النهاية .. نهاية لم تراود خياله يوماً وأو تتمثل له فى أسوأ كوابيسه رغم وفرتها .. لا .. لن يسمح لنفسه بأنسحاب سريع مخجل أمام وهم يسيطر عليه .. ثقته بنفسه على تجاوز الفشل ما زالت قوية رغم كل ما مر به .. لن ينهى حياته بفشل جديد يتندر به الناس .. يؤمن أن ما زال لديه الأفضل .. يشعر فى عروقه بدم الحماس ما زال يتدفق فيها .. و طاقته لم تنفذ بعد .. سيعود ليثبت لنفسه قبل أن يبرهن للآخرين أنه قادر على هزيمة أعدائه بنفسه .. لن يسمح للكسل و الفشل أن يكونا عنوان حياته و

ملخصها بعد الآن .. لن تلتصق به تلك الصفات مرة أخرى .. سيعود للحياة أكثر تصميماً .. و خطيبته سيحارب العالم من أجلها .. و أمه .. ما أجمل حضنها .. سيبرهن أن ثقتها فيه كانت فى محلها تماماً .. و لن يؤذى القلب الذى طالما أتسع لأحزانه ..

هم بالنزول من على كرسيه .. مد يده نحو الحلقة التى ضاقت بأحكام حول رقبته .. فى تلك اللحظة أهتز جسده .. أرتجت الأرض بغتة تحت أقدامه .. سمع صوت شئ يتحطم .. قبل أن ينظر لأسفل تمايل الكرسى تحت ثقل جسده .. تهشم فجأة سريعاً محدثاً دوى خافتاً .. هوى جسده متأرجحاً فى الفراغ .. ضرب بأقدامه فى الهواء بلا وعى محاولاً العثور على شئ صلب يقف عليه بلا فائدة .. ضغط الحبل على عنقه أكثر .. أنسحب الهواء من صدره فى دفعات سريعة متلاحقة .. أحتقنت عيناه بعد أن بدأت الدماء تندفع إليها بقوة .. تلون وجهه سريعاً بلون الدم .. بدأ يضرب بقدمه فى الهواء بقوة أكبر فلا يزيد سوى ضغط الحبل السميك على حنجرته .. حاول أن يمسك بالحبل بيده و لكن قواه بدأت تخور .. جرب أن يصرخ فلم يخرج صوته .. فى لحظات بدأت صور حياته تتدافع أمامه .. أدرك وقتها فقط أنها النهاية و لكنه ما زال يقاوم و يرفضها .. شعر بحواسه تكتسب ثقل مفاجئ ... الأصوات تختفى تدريجيا من حوله .. تبهت الصور لتتلاشى ببطء .. الضوء ينسحب من أمام عينيه .. يفقد قدرته على المقاومة

.. يختنق .. تنتاب جسده رعشة لا يستطيع أيقافها .. ترتجف أطرافه بعنف .. و .. ببطء يتسلل إلى عالم آخر لا يعرفه ..

فى تلك اللحظة .. من كل الصور التى مرت فى ذهنه وقتها توقفت ذاكرته أمام واحدة منها .. لا يعرف السبب ..آخر ما يتذكره وجه أمه داخل غرفته أثناء حديث قصير معه .. ربما من يومان أو ثلاثة .. لا يستطيع تحديد الزمن بدقة .. لكنه يتذكرها جيداً و هى تهمس فى أذنه قبل أن تغادر " لا تنسى أن تصلح الكرسى الصغير لأن قدمه تبدو مكسورة " .. و لكنه أهمل الأمر كعادته .. نظر إلى الكرسى المحطم تحت قدمه .. أبتسم بسخرية و الدم يندفع إلى رأسه .. أغمض عينيه فى أستسلام تام تلك المرة .. و ترك جسده للفراغ بعد أن توقف عن المقاومة

قضاء و قدر

هل يمكن أن يحاسب الأنسان على القضاء و القدر .. حدثت هـذه القـصة لى منذ أكثر من ثلاثة و عشرين عاماً .. كنت قد تخرجـت وقتهـا مـن كليـة الطب .. شاب بأحلام كبيرة و طموح بلا حدود و لكن بأمكانيات محدودة لا تتلائم مع طموحاته .. جاء تعييني فى قرية نائية لم أسمع بها مطلقاً ، و لم أجد من يستطيع أن يزودني بأى معلومات عنهـا .. أسـتجمعت شـجاعتى و توجهت إليها ذات صباح لأستلام أول عمل لى .. وصلتها ظهـراً بعـد رحلـة شاقة تراودنى أحلام كبيرة فـى النجـاح .. و بمجـرد أن أستكـشفت القريـة حتى شعرت بالغربة .. قرية فقيرة معظم بيوتها مـن طـين تحـيط بهـا مـن الأطراف العديد من البرك و المستنقعات .. طرقها غير ممهدة تختلط فيهـا رائحة الحقول بروث البهائم و قلة فقط من بيوتهـا تزورهـا الكهربـاء .. لا يوجد فيها سوى مقهى واحد و علمت أن وسائل المواصلات تنعدم بها ليلاً .. للوهلة الأولى قارنت بينها و بين المدينة التى أعتدت العيش فيها .. شعرت بالفراغ و الوحدة .. و على الرغم من صدمة الانطبـاع الأول قـررت أن أمـضى قدماً .. فلم يعـد يهمنـى الآن سـوى أن أنجـح فـى وظيفتـى الأولى ، و ربمـا شعرت لاحقاً بالراحة و السكون فى جو الريف الهادئ

أستلمت عملى فى الوحدة الصحية الخاصة بالقريـة ، إن جـاز أن نطلـق

عليها هذا الأسم .. كانت عبارة عن بيت متهالك من طابق واحد يشمل غرفتين أحدهما للكشف .. عرفت لاحقاً أنه كان ملحق بدوار العمدة قرر أن يخصصه كمركز صحى لخدمة أهل البلد أبتهاجاً بولادة أبن له .. يقوم على خدمة المركز ممرضة عجوز و فراش من أهل البلد .. كان أول ما فعلته أن قررت المبيت بغرفة الكشف حتى أجد سكناً ، فالقرية بالطبع تخلو من وجود فنادق من أى نوع .. قمت بجرد للأدوات و الأدوية الملحقة بالوحدة و التى عمل الطبيب السابق سجلاً بها .. سألت عن الأمراض الشائعة بين سكان القرية و تعداد أهلها .. ثم قررت البدء فى العمل من الصباح بعد أن أستريح من عناء السفر

فى الصباح بدأت العمل بعد أن حظيت بنوم مضطرب فى الليل .. لم أعتاد النوم بصحبة كل هذا الكم الهائل من الحشرات .. كما أن النوم على طاولة الكشف غير مريح تماماً .. أكتشفت أن معظم أمراض أهل القرية متشابهة .. كثير منها ناتج عن سوء التغذية أو العمل تحت أشعة الشمس الحارقة .. بعضهم عند الكشف كان يحكى عن أعراض كثيرة كلها متعارضة لا تجتمع إلا لشخص مات فعلاً أو فى طريقه لذلك .. أعتدت على رؤية هذا النوع من المرضى .. يمكن أن تعطيه بعض أقراص الفيتامينات و تقنعه أنها أحدث دواء ليقفز بعدها من الصحة فى الصباح التالى .. لم تكن هناك حالات خطيرة سوى لفلاح عجوز وقع و أنكسرت قدمه .. لم أجد بداً من تحويله

إلى قسم العظام فى الوحدة الصحية بمركز المدينة بعد أن قمت بعمل الأسعافات اللازمة .. أنتهى اليوم الأول على ما يرام .. و فى المساء تجولت فى القرية فلم أجد بها ما يلفت النظر .. قرية عادية تشعر أنك لو تمتلك آلة للزمن و عدت مائة سنة للوراء لألفيتها كما هى دون تغير .. و رغم أنى لم أكمل يومى الأول هنا و لكنى بدأت أفتقد سهراتى بالمدينة .. و خروجى مع أصدقائى كل ليلة .. بالأضافة إلى مجهودى لأتأقلم مع الحياة هنا مستقبلاً ، على أن أبذل مجهوداً آخر أكثر جدية لأنسى حياتى السابقة

كما توقعت مر أسبوع سريعاً بلا جديد .. الشئ الوحيد الذى طرأ عليه التغيير فى تلك القرية المنعزلة هو أنا .. أزدت هزالاً و شحوباً و لم أزل أعانى من الأرق ليلاً .. فى صباح اليوم الثامن و بينما أكشف على أحد المرضى سمعت ضجة عالية فى الخارج .. أقتحم غرفة الكشف فجأة بعدها رجل ضخم ذو شارب كث عرفت لاحقاً أنه عمدة القرية .. يحمل طفلاً صغيراً لم يتجاوز عمره ثمانى أعوام يبدو هزيلاً جداً .. ثرت على الممرضة التى أقتحمت غرفة الكشف وراءه حيث أنى أفهمتها من قبل بمنع دخول أى شخص أثناء قيامي بالكشف على مريض مهما كانت الأسباب .. و لكنها كانت تقف عاجزة تنقل بصرها حائرة بينى و بين الرجل الضخم .. تحولت إليه بعصبيه و صببت جام غضبى عليه .. جرى بيننا جدال عنيف عرفت منه أن أبنه سقط مغشياً عليه فجأة فلم يجد بداً من أقتحام الوحدة بهذا

الشكل .. رغم ضخامته و مقامه كان منظره مثيراً للشفقة حقاً و هو يحتـضن أبنه الصغير .. تمالكت نفسى قليلاً .. أنهيت الكشف على المريض و كتبـت له بعض الأدوية سريعاً ثم توجهت إلى أبن العمدة .. حملته و وضعته برفق على طاولة الكشف بينما يلاحقنى العمدة بنظراته و هو يرتجـف قلـيلاً مـن الأنفعـال .. لم يـستغرق الأمـر سـوى لحظـات حتـى أدرك أن الولـد أصـيب بضربة شمس قوية .. حراراته مرتفعة و معدل تنفسه بطئ .. منحته حقنة خافضة للحرارة و كتبت له بعض الأدوية ثم أمـرت العمـدة أن يعـود بأبنـه لبيته و وعدته أن أوافيه هناك بعد العيادة لمتابعة الحالة .. لم يجـد العمـدة بداً من تنفيذ تعليماتى .. أنهيت العمل فى الوحدة بعد سـاعتين .. جلـست مرهقاً .. دخلت المرضة بعدها لتعتذر عمـا حـدث .. علمـت منهـا أنهـا لا تستطيع منعه حتى لو حاولت فهو كبير القرية و سـيدها ، و الوحـدة التـى نعمل فيها كانت من أملاكه يوماً .. كما أنه لم ينجب سـوى أبـنين أحـدهما فى التجنيد .. و لم يتبق له سـوى هـذا الولـد .. قبلـت أعتـذارها و أمرتهـا بالأنصراف .. رغم أرهاقى إلا أنى أعتدت أن أفى بوعودى .. توجهت لمنزل العمدة الذى لم يكن من الصعب العثـور عليـه فهـو ملاصـق للوحـدة .. دوار كبير حقاً ينبئ بمكانة صـاحبه .. أسـتقبلونى بلهفـة .. قـادونى إلى الطفـل المريض بسرعة .. أنخفضت حرارته قليلاً و لكنها مـا زالـت تـثير القلـق .. طلبت بعمل كمادات له و ظللت طوال الليل بجواره .. أتى لى العمدة بالطعام

بنفسه و تبادل معى الحديث .. قررت المبيت بجوار المريض لمتابعة حالته و قام العمدة بواجب ضيافتى على أكمل وجه ، و فى الصباح كانت الحرارة قد أنحسرت و بدأ الولد يتنفس بشكل طبيعى و إن كان ما زال بحاجة لمواصلة العلاج و الراحة لعدة أيام .. خرجت بعدها للوحدة لأواصل العمل و أنا أقاوم النوم بصعوبة .. و فى المساء زارنى العمدة .. كان شخصاً آخر .. ممتلئ قوة و مهابة و يرتدى جلباباً فاخراً من الصوف .. كانت المرضة على حق عندما لم تعترض طريقه .. حمل هدايا كثيرة و شكرنى بشدة على المجهود الذى بذلته .. قال أنه لولاى لفقد الولد و أثنى كثيراً على براعتى .. أعلم أن كلامه به مبالغة و لكن المديح أطربنى ، لأول مرة أجد شخص يثنى على عملى .. تبادلنا الحديث طويلاً .. و عندما علم أنى أنام فى الوحدة شهق من المفاجأة .. كيف لطبيب مثلى أن ينام هكذا .. أمر بتجهيز بيت خاص بالضيوف ليصلح مكاناً لسكنى و أقسم أن أبيت فيه .. عندما ذهبت إلى هناك أحسست أنى انتقلت للجنة مقارنة بالمكان الذى كنت أسكنه مؤقتاً .. بيت من طابق واحد واسع به غرفة نوم كبيرة مجهزة بناموسية و حمام و مطبخ .. لم أكن لأحلم بأفضل من هذا فى تلك الظروف .. و أمعاناً فى مكافأتى خصص لى خادمة ترعانى

لأول مرة أنام بعمق منذ مجيئى إلى هنا .. تحسنت أحوالى كثيراً بسبب المسكن الجديد .. و الأهم بسبب الخادمة التى وفرت لى العديد من وسائل

الراحة لشخص مهمل بطبعه مثلى .. أمرأة متوسطة العمر تتفانى فى عملها .. أعود لمنزلى فأجد طعامى جاهزاً .. تغسل ملابسى و تنظف المنزل قبل عودتى .. أزداد وزنى بشكل ملحوظ خلال أسابيع قليلة بعد أن أصر العمدة على تزويد منزلى دائماً بشتى أشكال اللحوم و الخضروات و الطيورالطازجة .. بدأت أتأقلم على الحياة و العمل هنا خاصة أن العمدة صادقنى و أعتدت السهر فى دواره كل ليلة مع أعيان القرية .. وأكتشفت أن العمدة مثقف حيث درس فترة فى المدينة فدارت بيننا مناقشات فكرية كثيرة وثقت الصداقة بيننا .. و بدأت الحياة العابسة فى القرية تظهر على وجهها أبتسامة ضئيلة لى

كنت أنهى عملى عادة فى الثالثة و أعود للمنزل فأجد كل شئ مرتباً و الخادمة قد أنصرفت .. أحياناً كنت ألقاها عند عودتى تستعد للمغادرة فأهبها بعض النقود ، أو أطلب منها حمل الطعام الدسم الذى أعدته معها حيث كنت أتناول الطعام مع العمدة فى كثير من الأحيان .. و هكذا مضت أسابيع .. حتى أنهيت عملى فى أحد الأيام مبكراً .. لم تكن الوحدة مزدحمة بالمرضى كالعادة فى هذا اليوم و عرفت بالمصادفة أن هذا هو موسم حصاد المحصول حيث ينشغل الجميع .. حتى المرضى منهم أو المتمارضين وكبار السن يذهبون للعمل .. لم أجد ما أفعله فى الوحدة فتوجهت إلى منزلى القريب طلباً للراحة و طلبت من المرضة أبلاغى إذا كانت هناك حالات

طارئة .. دخلت المنزل فسمعت حركة أوانى فى المطبخ .. لا بـد أن الخادمـة تطهو الطعام .. تعمدت أن أسعل بصوت عالى حتى أنبهها لوجودى .. لفـت أنتباهى رائحة المنزل الجميلة .. جلست أدخن قليلاً أنتظاراً لقدوم الطعام و أنا أقرأ أحد المجلات القليلة التى أحصل عليها بـصعوبة مـن القـادمين مـن المدينة .. لم أكد أنهى سيجارتى حتى سمعت وقع أقدام تقترب مـن الغرفـة .. وضعت صحن الطعام أمامى و أنا أقرأ .. أزحت المجلـة جانبـاً و نهـضت لأساعد الخادمة فى وضع الصحن الكبير .. رفعت بصرى .. تفاجئت بـأمرأة أخرى

تسمرت فى مكانى للحظـات .. نعـم .. أمـرأة أخـرى غـير الخادمـة .. صبية شابة لم تتجاوز التاسعة عشر .. بمجرد أن وضعت الطعام حتى لفـت شالها على وجهها من الخجل و أنصرفت بسرعة .. ثـم عـادت بـأبريق مـن الماء تحمله بيد و باليد الأخرى ما زالـت تخفـى وجههـا بـشالها .. وقفـت بأنتظار أوامرى .. بالطبع سألتها عن الخادمة .. أجابتنى بـصوت مـنخفض من الحياء أنها أبنتها و علمـت منهـا أن أمهـا مريـضة و لم تـستطع القـدوم فحلت مكانها .. كنت أعلم أن للخادمة بنتاً و طفلين صـغيرين و أن زوجهـا توفى من فترة .. و لكنى لم أتخيل أن أبنتها على مشارف الشباب و جميلة بهذا الشكل .. أخبرتها أنى لست بحاجة لشئ .. أنـصرفت بعـدها مغـادرة المنزل و أغلقت الباب وراءها .. أقبلت على الطعـام و أنـا أفكـر فيهـا .. فـى

الواقع لم أتذوق طعاماً أشهى من الذى صنعته من قبل .. حتـى المـاء كـان لـه طعم مختلف بعد أن أضافت إليه بعض ماء الورد فنـزل بـرداً و سلاماً علـى معدتى المتخمة .. و على الرغم مـن أنـى لم أرى إلا نـصف وجهها .. إلا أن الجمال لا يمكن أخفاءه .. في المساء سهرت مع العمدة .. سألته بشكل غـير مباشر أثناء حديثنا عن الخادمـة .. عرفـت منـه أنهـا أرملـة معدمـة مـات زوجها من فترة بسيطة فخرجت للعمل .. علمت أنها أنجبت أبنتها و هـى صغيرة ثم قضت سنوات طويلة بدون أنجـاب حتـى رزقـت بولـديها و أنهـا كانت تخدم فـى بيتـه قبـل أن يلحقهـا بخـدمتى اكرامـاً لى ، و أنـه يـشهد بأمانتها و كفاءتها

بالطبع لم أحكى له أن بنتها جاءت لخدمتى اليوم بدلاً من أمها المريضة .. الغريب حقاً أنها لم تفكر بزيارتى رغم مرضها .. يبـدو أن بعـض سـكان هذه القرية لا زالوا لا يثقـون بالطبيـب و يفـضلون عليـه الوصـفات القديمـة المعتادة من بعض العطارين المعروفين فى القرية

فى اليوم التالى عدت من العمل مبكراً .. وجدتها هنـاك .. ترتـدى ثوبـاً جديداً فاتح اللون زادها جمالاً .. ظهرت حمرة الخجل على وجهـهـا عنـدما رأتنى .. لم أستطع تبادل أى حديث معها يومها لأنها أنصرفت بمجـرد أن وضعت الطعام .. و لكنى فى اليوم التالى صممت على العودة أبكر من المعتـاد .. تفاجئت بعودتى .. لم تكن أعدت الطعـام بعـد و لهـذا أضـطررت للبقـاء

حتى الأنتهاء منه .. بدأت أتجاذب معها أطراف الحديث و هى تـرد علـى أسئلتى بأجابات موجزة مقتضبة لا تشفى غليلي .. قبل الأنصراف أهـديتها بعض الفاكهة التى أشتريتها و بعـض الأدويـة لأمهـا بعـدما سمعـت منهـا بأيجاز عن حالتها

مر أسبوع سريعاً و زادت الألفة بيننا تدريجياً .. أصبحت لا أفكـر لـيلاً أو نهاراً إلا فيها .. لم أكن شاباً ساذجاً قليل الخـبرة بعـالم النـساء .. قمـت بالعديد من المغامرات أيام دراستى قبل مجيئى إلى هنا .. و هى فتاة لا تجيد التحدث أو أبراز مفاتنها كما تجيد فتيات المدينة .. فما سر أنجذابى إليها أذن .. ربما بسبب الفراغ الذى أشعر به هنا .. أو لأنها مختلفة .. لم أعرف فتيات يشبهنها من قبل .. فاكهة جميلة بكر لم تسقط بعد من أغصانها ، و لم تمسها يد من قبل .. و رغم تبسطها معى فى الكلام قليلاً إلا أنى لا زلـت ألاحظ تحفظها عندما تكون معى .. تحافظ على مسافة بيننا عندما أكلمها .. تبقى على باب البيت مفتوحاً عندما أعود .. و على النوافذ أيضاً و لأن البيت من طابق واحد ملئ بالنوافذ فيسهل على أى مار رؤية كل ما فيه .. لم أرهـا يوماً تلبس ملابس قصيرة أو منزلية بسيطة رغم أنها تنظف البيت يومياً .. يبدو أنها تقوم بهذا بمجرد مجيئها فى الصباح عندما أكون فى ذروة عملـى فى الوحدة

أستعنت بكل الأساليب التى أعرفها لأستمالتها و تنوعـت طرقـى فـى

ذلك .. أصبح كل فكرى مقصوراً عليها .. تيقظت بداخلى حاسة صياد قديم كنت قد نسيتها .. و بدأت أحكم شباكى أنتظاراً لفريسة ثمينة .. أستطعت فى أحد الأيام أن أمسك يدها بحركة بدت عفوية و أبقيتها فى يدى لأطول فترة ممكنة .. أستملت قلبها بالعديد من النوادر عن المدينة و التى كانت تطرب لسماعها .. أثرت شفقتها بحديثى عن الوحدة التى أعانى منها و حاجتى لأمرأة لتشاركنى حياتى المضطربة .. و عندما شعرت أنها أقتربت من الشباك .. أنتهزت الفرصة و أغتنمت منها قبلة أسرعت بعدها بالفرار من البيت خجلاً

كانت خطتى تسير على ما يرام إذن .. أيام و تقع بين يدى .. أخيراً بعد عشرة أيام من مطاردتها .. فى اليوم التالى عدت مبكراً كالعادة أحمل بعض الهدايا أشتريتها من المدينة بعد أن أوصيت أحد زملائى هناك بأرسالها مع واحد من التجار هنا .. أشتريت الكثير من الفاكهة و الحلوى .. كنت أدندن من أغنية أحبها و أنا أدلف للدار .. سمعت صوت جلبة فى المطبخ .. لا بد أنها هناك .. أخفيت الهدايا و ناديت عليها .. أستغرق الأمر لحظات قبل أن أسمع صوت أقدامها .. عندما خرجت من المطبخ .. أصابتنى صدمة

ليست هى .. على باب المطبخ ظهرت أمها .. و للحظة عجزت عن الكلام .. هل أشتكت لأمها أنى عاكستها .. هل أحست أمها بشئ فجاءت لتنتقم .. و لكن أمها قطعت على حبل أفكارى السوداء لوناً و خيالاً عندما

جاءنى صوتها الضعيف لتخبرنى أنها تعافت من مرضها ، و رأت العودة من جديد للعمل .. عاودتنى الطمأنينة عندما لم أتنين فى وجهها أى ملامح للشر أو الغضب .. كتمت سؤالاً كاد يقفز من طرف لسانى لأسألها عن أبنتها .. هنأتها على سلامتها رغم أنى رأيت علامات الأجهاد بادية بوضوح على وجهها .. يبدو أنها عانت من مرض قاسى فعلاً .. و لم تبرئ منه تماماً .. تناولت طعامى بلا شهية .. قبل أنصرافها أشرت إلى الفاكهة و الحلوى و أمرتها ان تحملها لبيتها .. لم تنسى أن تشكرنى على الأدوية التى أرسلتها و التى كانت سبباً فى سرعة شفائها .. لأول مرة طوال حياتى ألوم نفسى لأنى كنت السبب فى شفاء أحد .. اللعنة .. ليتنى لم أرسل الدواء .. كنت على بعد خطوة فقط من نيل مرادى قبل أن ينهار كل شئ فجأة

لا أعرف لما أحسست بالأحباط يومها .. كان الأمر كله عبثاً .. من البداية مجرد لهو .. رغبتى الرجولية فى أثبات ذاتى بأيقاع شابة بريئة فى حبالى .. مغامرة أخرى أسترجعها لاحقاً عندما أكبر و أبتسم دون أهتمام بما يحدث للفتاة لاحقاً .. ربما كان هذا ما يحركنى فى البداية .. و لكنى بدأت أحس بأنجذاب شديد تجاه هذه الفتاة لا أعلم مصدره .. أنجذاب حقيقى صادر عن عاطفة لم أعرفها من قبل

فى الأيام القليلة التى كانت فيها معى كنت أعيش فى جنة هى التى صنعتها .. فى المرات المعدودة التى حاورتها ، و رغم نشأتها الفقيرة ، إلا

أن حديثها كان يدل على ذهن متوقد و ذكاء فطرى .. مجرد وجودها حولى كان يريحنى و يضفى جو من الدفء على المنزل لا أشعر معه بالوقت .. مجنون أنا لأفكر بخادمة بهذا الشكل .. و لكن المشاعر ليست لها منطق فمن يستطيع السيطرة عليها .. كل محاولاتى لنسيان الأمر جاءت بنتيجة عكسية تماماً فبدأت أفكرفيها أكثر .. أشتاق إليها .. فى فترة غيابها تواردت خواطر كثيرة فى رأسى و تصادمت .. لم أعد قادراً على التركيز أو التفكير في شئ آخر .. لكن الشئ المؤكد أنى كنت أرغب فى رؤية هذه الفتاة مرة أخرى بأى ثمن

مرت أربعة أيام و كدت أجن .. كان لا بد لى أن أراها بأى شكل .. لاحظت الخادمة توترى فأرجعته إلى ضغط العمل .. فقدت شهيتى تماماً فكنت أطلب منها أن تأخذ الطعام الذى تعده إلى بيتها خاصة أنها ما زالت فى مرحلة النقاهة و تحتاج لتغذية جيدة حتى تستعيد قواها .. فى اليوم الخامس أنتابتها كحة شديدة .. عرضت أن أكشف عليها و لكنها تراجعت بخوف و رفضت بحزم .. هذه المرأة تخاف إذن من الكشف عند طبيب رجل .. ذلك هو السر فى عدم مجيئها إلى عند مرضها الأول .. فى اليوم التالى زادت حدة الكحة لديها .. كنت أعلم بحكم خبرتى أنه مجرد ألتهاب فى الحلق أهمل علاجه و لن يسبب خطورة كبيرة على صحتها على أى حال .. فى ظهيرة اليوم التالى فى الوحدة كنت أعبث بمحتويات بعض الأدوية بعد

أن فضلت فى الفترة الأخيرة أن أقضى فترة راحتى هناك بعيداً عن البيت الذى يثير لدى ذكريات لا أستطيع كبتها .. وقعت يدى على بعض المواد فخطرت لى فكرة لا أعلم كيف واتتنى ..غزت عقلى بسهولة .. لا أدرى كيف أنهارت أمامها كل ملكات العقل و المنطق لدى و كيف وجدت قبولاً سريعاً عندى .. فكرة خبيثة حاولت أن أطردها من تفكيرى فلم أفلح إلا فى جعلها تستولى على مزيد من خلايا تفكيرى المشغول بالفتاة .. أعلم بالطبع أن الخادمة مصابة بألتهاب فى الحلق .. بيدى مادة لو تناولتها تزيد حدة الحالة لديها .. بالطبع لن تعرض صحتها للخطورة و لكنها ستجبرها على المكوث فى المنزل .. أعراضها مؤكدة .. لن تستطيع الكلام و ستصاب بصعوبة فى التنفس و ربما ترتفع درجة حرارتها قليلاً .. لن تستطيع النهوض للعمل على أى حال .. ستزول الأعراض بعد عدة أيام بشكل طبيعى دون أن تصاب بضرر .. لن أعرض صحتها للخطر بالتأكيد .. و لكن بأمكانى فقط أن أضعف مقاومة جسمها للمرض قليلاً فلا تستطيع النهوض للعمل .. عندها فقط .. سترسل أبنتها بالتأكيد مرة ثانية لخدمتى بدلاً منها .. لمعت عيناى و أنا أتدبر كل هذا .. الغريب أنى لم أجد أدنى مشكلة أو صعوبة فى تقبل الفكرة نفسها.. و لكن فى كيفية تنفيذها .. كيف أعطيها المادة دون أن أثير شبهتها

لو أعطيتها المادة على شكل دواء ستمرض بعدها و ستوقن بأن الدواء هو

السبب .. بعد طول تفكير .. وجدت أن أنسب طريقة هى أن أضع المادة فى الطعام فالمادة بلا رائحة أو طعم قوى مميز .. بعد الظهر بساعة عدت لمنزلى .. تظاهرت أنى متعب قليلاً .. أمرتها بغسل بعض الملابس .. ذهبت لتنفذ أمرى فتسللت للمطبخ الصغير .. كنت أعلم أن العمدة أرسل لى طعاماً من منزله .. دسست المادة فى بعض الأوانى الموجودة .. عندما أنتهت أخبرتها أنى لست أشعر بأى شهية للطعام .. طلبت منها أن تحمل الطعام لمنزلها و تحرص على تناوله حتى تستعيد صحتها .. نظرت إلى شاكرة .. ناولتها بعض الفاكهة التى أشتريتها أيضاً .. أنصرفت و هى تتمتم لى ببعض الدعاء .. أحسست بقلبى ينبض بقوة و أنا أراها تحمل الطعام فى طريقها لمنزلها .. أوشكت أن أقفز من مكانى و أعترض طريقها لأعترف لها بما قمت به .. منعت نفسى بصعوبة و جلست و العرق الغزير ينساب منى

قضيت طوال الليل قلقاً من عواقب ما فعلته .. لم أستطع النوم .. فى الصباح لم تأت الخادمة .. الخطة تسير على ما يرام إذن .. توجهت لعملى بحماس أكبر من المعتاد .. عدت مبكراً متوقعاً أن أجد الفتاة .. و لكن لم يكن هناك أحد بالمنزل .. لم تأتى هى ، أو ترسل أبنتها .. كنت مرهقاً من التفكير طوال الليل فغفوت قليلاً .. أستيقظت على صوت فراش الوحدة ينادينى من الخارج لحالة طارئة .. أرتديت ملابسى ساخطاً و أنا بين اليقظة و النوم .. فى الوحدة أكتشفت أن الحالة لصبيان .. طفلان أحدهما فى

الثالثة و الثانى يكبره بعامين .. أحدهما وجهه أزرق يعانى من صعوبة فى التنفس و يمسك ببطنه بشده بينما الثانى جسده ساكن بشكل مثير للقلق .. أنتبهت فوراً و طار النوم من عينى .. من الواضح أن الحالة خطيرة فعلاً .. بدأت بالكشف على الصبى الأكبر الذى كان يتلوى من الألم .. حرارته مرتفعة بشدة .. بعد قليل ألتفت إلى الصبى الآخر .. الصبى الأصغر .. لاحظت أن جسده بارداً و من الكشف المبدئى أدركت أن الأمر قد فات لأسعافه .. نقلت كل جهدى للطفل الأكبر فى محاولة يائسة لأنقاذه .. ناولته بعض الحقن .. أمرت الجميع بالخروج ما عدا المرضة التى كانت تقف بجوارها سيدة متشحة بالسواد لم ألحظ وجودها فى البداية .. كنت مشغولاً عندما أقتربت منى .. لاحظت أنى لا أكشف على الطفل الأصغر .. نظرت إلى جسده البارد .. أصطدمت بها و أنا أجهز بعض الأدوات فألتفت إليها غاضباً .. أمرتها بالخروج صارخاً .. تسمرت فى مكانها .. يبدو أنها كانت فى حالة صدمة فلم تسمعنى .. رغم القناع على وجهها إلا أنى لاحظت أنها تبكى .. أقتربت منها المرضة و قادتها للخارج فمضت معها بأستسلام بخطوات ثقيلة .. عدت لعملى .. الطفل بحاجة لغسيل معدة بالتأكيد و بعض الفحوصات .. لا أدرى تحديداً سبب الحالة .. و لكن تصورى المبدئى أنها حالة تسمم حادة

خرجت من غرفة الكشف بعد برهة و أمرت المرضة بتجهيز بعض

الأدوات .. تقدمت منى السيدة التى تتشح بالسواد .. لم أجد بداً من مواجهتها رغم أرهاقى .. رفعت الغطاء عن وجهها .. لم أرى وجهها إلا فى هذه اللحظة .. تسمرت فى مكانى .. خادمتى .. هى بعينها .. سألتنى بصوت خانق من العبرات عن حالة أبنيها .. أذن الطفلين ولديها .. كيف أخبرها .. الطفل الكبير لم يتجاوز الخطر .. و الآخر لم يكتب له النجاة .. تأخروا كثيراً فى أسعافهما و نقلهما إلى الوحدة الصحية .. تطلعت من باب غرفة الكشف المفتوح إلى الطفل الأصغر المسجى جسده على الطاولة أمامى بلا حياة .. تاهت منى الكلمات .. أول مرة يموت لدى مريض .. و أى مريض .. هززت رأسى بأسف .. لم اجد بداً من أخبارها بالحقيقة .. أنهارت أرضاً .. تقدمت منها فتاة تتشح بالسواد مثلها .. أبنتها التى لم ألحظ وجودها من قبل .. أحتضنتها و أنخرطا فى نوبة بكاء صامتة .. صرخت أحد السيدات الموجودات فى العيادة فطلبت منها الصمت حتى أستطيع مواصلة علاج الطفل .. لعدة ساعات أنشغلت فى علاجه و قياس درجة حرارته .. فى المساء بدأ يتنفس أخيراً بشكل طبيعى و إن لم يفق بعد من غيبوبية أنتابته .. خرجت مرهقاً من غرفة الكشف

لم أجد بداً من مواصلة القيام بدورى كطبيب و التوجه نحو الأم لسؤالها بعض الاسئلة لأعرف الظروف التى أدت إلى هذه الحالة .. أخبرتنى الام المكلومة بصعوبة أن ولديها كانا بصحة جيدة .. تناولا طعام الغداء ثم لعبا

قليلاً فى الخارج .. فى المساء بدأت بوادر الحمى تظهر عليهم قبل أن تـشتد فى الصباح .. لوهلة كـان يبـدو الأمـر طبيعيـاً داخـل ذهنـى .. و لكـن بعـد لحظات بدأت أستعيد كل كلمة قالتها الأم .. كانا طبيعين قبل تناول الغـداء .. هل يمكن .. غير معقول .. هل أكلا من طعام الأم .. بدأت الصورة تتـضح قليلاً .. الطعام الذى أرسلته معها بالأمس .. كان لدى شك فى الأعراض التى حدثت للولدين ..أعراض مألوفة لدى بلا شك .. تسمم بالتأكيد من مادة غير معروفة .. حاولت أن أتمالـك نفـسى .. يكـاد ذهنـى ينفجـر عنـدما أتخيـل الموقف .. الأم آثرت أبنيها على نفسها و ناولتهما الطعام المفترض أنه لها و الذى عادت به من منزلى .. هذا يفسر كـل شئ .. تنحيـت جانبـاً سـريعاً و ذهنى يكاد ينفجر .. أنفردت بنفـسى قلـيلاً فـى غرفـة الكـشف مـع الطفـل المريض ، فيما نقلوا جثة الطفل الآخر لمكان مجهول أستعداداً لدفنه .. أكـاد أجن .. ماذا فعلت .. المادة التى وضعتها بالتأكيد لم تكن لتشكل خطورة على حياة الام .. ستفقد قوتها لبضعة أيام قبل أن تتعافى تلقائيـاً بعـد فـترة .. و لكن بالنسبة لطفل صغير لم يتجاوز الثالثة .. مناعـة الجـسم هنـا أقـل .. و عواقب تناولها مميتة .. خاصة أنهم تأخروا فى العلاج .. كان يجب أرسال الطفلين فوراً بمجرد ظهور الأعراض عوضاً عن الأنتظـار لليـوم التـالى لطلـب مساعدة متـأخرة .. أدركـت الآن فقـط أنـى الـسبب .. أعـترف بهـذا .. أنـا المجرم .. ما حـدث كـان خطئـاً منـى .. بـسبب غبـائى و تهـورى .. أحـد

الأطفال مات و الآخر يقف على الخط الفاصل بين الحياة و الموت بسبب نزوة طائشة من قاتل فى ثياب طبيب مثلى ... هرعت فزعاً فأغلقت باب غرفة الكشف و مكثت داخلها .. لا أعلم كم من الوقت مر على هكذا .. خفت أن أخرج إليهم .. كنت متأكد أن نظرة إلى وجهى .. و بخاصة من الأم .. ستفضحنى بالتأكيد و يدركون أني الفاعل .. و ربما أنهرت تماماً و سهلت الأمر عليهم و أشرت إلى نفسى لأعلن أنى السبب بصوت عالى

قطع على تفكيرى المرضة و هى تدلف للغرفة .. حاولت أستعادة رباطة جأشي .. طلبت منى كتابة شهادة وفاة للطفل حيث يحتاجها الرجال بالخارج لأنهاء الأجراءات .. يا ربى .. هذا ما لم أفكر فيه .. أقتله و أكتب شهادة وفاته بيدى .. ذلك أكثر مما يمكن لبشر تحمله .. و ماذا أكتب فى خانة سبب الوفاة .. عبث طبيب .. الطبيب العاشق هو السبب .. نبهتنى المرضة بعد أن لاحظت طول صمتى .. أمسكت القلم و يدى ترتعش .. بذلت جهداً لأتمالك نفسى .. صوت العقل بداخلى – أو لعله صوت الشيطان – ينادينى .. آخر ما أحتاج إليه الآن هو أن أنهار أمامهم .. ما حدث قد حدث و لن ينفع أعلانى للخطأ .. على أنقاذ مستقبلى .. لم يتراجع الموت من قبل أمام ندم قاتل و لن يفعل فبماذا يفيد أعترافى .. كتبت الشهادة و سلمتها للممرضة .. ذكرت فيها أن سبب الوفاة طعام ملوث .. لم أذكر شيئاً عن المادة المسببة للوفاة .. ناولتها الشهادة بيد ترتجف .. ظنت أنفعالى

بسبب الأجهاد .. قررت بعدها الاعتكاف فى الغرفة حتى الصباح بحجة البقاء بجوار الطفل المريض

لا أعلم كيف مر الوقت على .. أحاول أن أوقف تدفق الصور فى ذهنى فلا أستطيع .. نجحت فى انقاذ الطفل الكبير .. سمعت المديح و عبارات الثناء من الجميع لأنقاذى طفل من براثن الموت و لا أحد يعلم أنى قدمت طفلاً آخر قرباناً له .. حتى الأم المثكولة تمالكت نفسها و جاءت لتشكرنى بنفسها فكدت أذوب أثماً و أنا أقف بين يديها أتلقى مديحها كخناجر تغرس فى قلبى .. لم أطق الحياة فى القرية .. قدمت أستقالتى بعد فترة متحججاً ببعض الظروف العائلية فى المدينة التى تدفعنى للعودة .. هجرت البلدة كلها بعد عدة أسابيع مما حدث .. سعيت لبعثة فى الخارج و سافرت .. ظننت أن البعد عن مكان الجريمة سينسينى ما حدث و لكن الشعور بالذنب لا يعترف بحدود أو قيود المكان فلازمنى .. أصطحبنى فى أى مكان فررت إليه .. رجعت بعد عدة سنوات و أفتتح عيادتى الخاصة .. أنهمكت فى العمل بلا راحة .. أنقذت حياة الكثير من المرضى و ساعدت فى شفاء أعداد لا تحصى .. ظهرت فى التلفاز عدة مرات و ذاع صيتى .. بنيت مستشفى خيرى و تعددت أعمالى الأنسانية .. و لكن كل هذا كان مجرد مخدر لتسكين آلام الضمير المزمنة .. قطعت علاقتى بالماضى إلا من خيط واحد .. تواصلت مع العمدة سراً لسنوات للأطمئنان على حالته فى الظاهر ..

و حالة الأسرة التي دسست الموت بين أفرادها .. أرسلت له مبالغ مالية عندما تحسنت حالتي و طلبت منه منحهم أياها دون ذكر أسمي و لكنهم رفضوها فالأم لا تقبل أحساناً من أحد كما قال و لهذا كانت تخرج و أبنتها للعمل .. أنقطعت صلتي به بعد فترة .. أحياناً أنصب محاكمة لنفسي .. أقاضيها بقسوة .. أنا الشاهد على نفسي و الجلاد و القاضي .. أصدر حكمي عليها من أول جلسة .. لا مذنب سواى .. و أحياناً أدافع عن نفسي .. تأخيرهم في علاج الحالة كان سبباً مباشراً في تدهورها و عدم القدرة على علاجها .. ما زال صراع البراءة و الذنب يشتعل بداخلي .. أكتب قصتي على الورق و أتمنى لو كان ينطق فيحكم على حالتي .. بحكم عملي كطبيب أعلم أن ألم الجروح يزول بعد فترة و لم أدرك أن جروح الضمير لا يزيدها الزمن إلا أيلاماً .. ما زالت صور الطفل المفارق للحياة تحل ضيفاً ثقيلاً على ذاكرتي بلا موعد و تأبى أن تفارقني .. كمريض بالصرع لا يرجى شفاؤه ، تنتابني من وقتها كثير من نوبات الذنب و الندم بشكل مفاجئ فتعصف بكياني .. ما يقلقني أني تزوجت متأخراً و أنجبت طفلان .. أدخل غرفة نومهما كل مساء بعد عودتي من العمل لأطمئن عليهما .. لا أتصور أن أفقد أحد منهما .. أتخيل أحياناً أني لم أعاقب على فعلتي و ربما يأتيني العقاب في طفلاى .. أكاد أجن عندما تراودني تلك الأفكار .. ليس هناك أسوأ من أن تقضي حياتك في حالة أنتظار مزمنة لعقاب عادل قد يأتي في أى لحظة .. لا أعرف

لحالتى علاجاً مؤقتاً سوى الكى بـالألم .. أعـيش مطـارداً بالنـدم .. و النـدم ذئب جشع لا يرحم لا تزيده مرور السنوات إلا خبرة فى أحكام خناقه على فريسته .. لم أنجح طـوال تلـك السنوات فـى الـتكفير عـن أثمـى و لكنـى نجحت بجدارة فى أن أتعذب به .. أتعذب بذنب أحاول عبثاً التعايش معه منذ ثلاثة و عشرون عاماً بلا أمل

صورة

زرنا صديقنا فتحى فى مكتبه لتهنئته بمنصبه الجديد .. لم يتغير مكتبه القديم رغم الترقية .. رحب بنا بحرارة و قضينا بضع دقائق نتبادل الحديث فى عدة موضوعات مختلفة قبل أن يتناهى إلى سمعى صوت طرقات على الباب .. يبدو أن صاحبى لم ينتبه له لأنه واصل الكلام .. بعدها بثوان عاد الطرق مرة أخرى .. لأول مرة أدرك أن صديقى ثقيل السمع .. ألتفت إليه لألفت نظره أن هناك أحد بالباب ربما يستأذن فى الدخول .. لوح بذراعيه بلا مبالاة و لم يعلق .. و لكن عندما قطع حديثنا للمرة الثالثة صوت تلك الطرقات الخفيفة نهضت و فتحت الباب لأتفاجئ بعدم وجود أحد .. الردهة الطويلة أمام المكتب خالية تماماً .. أخرج صديقى علبة سجائرة و أشعل واحدة بهدوء ثم أسترخى فى مقعده .. سألته بتعجب و أنا أشير إلى الطرقة الخالية :

– أين ذهب الطارق ؟

أجابنى بلا أكتراث : دعك منه .. ربما فتحى الفراش .. تلك طرقته المميزة

لم يفوت صديقنا الفرصة .. سأله مازحاً : و هل أعتاد أن يطرق الباب ثم يهرب كالأطفال ؟

– ربما أصابه الملل فأنصرف .. أو ربما غضب قليلاً لأنى أتجاهله كالعادة .. لا تقلق سيعود لاحقاً .. و لن أفتح له

سألته بتعجب : إذن تتجاهله عمداً .. لماذا .. ؟

قال دون أهتمام : لهذه قصة طويلة

أثارت كلماته فضولى ، قلت مازحاً : يبدو أن بالموضوع سراً ما تحاول جاهداً أن تخفيه

ضحك صديقى قائلاً : لا يوجد أسرار .. و لكنى لا أريد تضييع وقتكما سدى فى قصة لا تستحق

أجبته و أنا أعاود الجلوس على مقعدى : طالما ليس بالموضوع سراً فأحكى إذن .. على الأقل نعرف لما طرق الباب و هرب

سكت قليلاً ، ثم قال بأستسلام بعد برهه : حسناً .. و لكنى حذرتكما أنها حكاية مملة لا تستحق

أطفئ سيجارته ثم قال :

عم فتحى أقدم عامل هنا .. أستلم عمله من أول يوم أنشأنا فيه المجلة .. الجندى المجهول هنا كما يقولون .. نشيط دائماً لا يركن للراحة و لا يستقر فى مكان .. لم يكن فراشاً فقط .. بل أيضاً عامل النظافة و حارس الأمن و سكرتير أحياناً .. مجلتنا فى بداية عهدها لم تكن مشهورة و ميزانياتها

محدودة للغاية و لهذا قام بكل تلك الوظائف راضياً .. أعتاد أن يأتى فى الصباح مبكراً قبل أى أحد .. ينظف المكاتب ثم يتوجه إلى المطبخ .. بمجرد أن يضع الماء ليغلى حتى يتوافد المحررين .. يعد المشروبات طوال اليوم .. يستقبل أحياناً الزوار و يدلهم على المكاتب .. يصلح أى شئ مكسور .. و يرد على التليفونات عندما تكون السكرتيرة الوحيدة لدينا مشغولة أو متأخرة كعادتها .. هو أول من وقعت عيناى عليه عندما جئت إلى هنا .. مجرد محرر مبتدئ وقتها .. كنا نحسده على ذاكرته القوية .. لا ينسى شيئاً .. يحفظ عادات كل شخص .. فى الثامنة صباحاً يحضر لى قهوتى المعتادة .. وبعدها بساعتان تماماً يحضر كوب القهوة الثانى دون أن أطلب منه بعد أن عرف عاداتى .. مواعيده دقيقة تستطيع أن تضبط ساعتك عليها .. بمرور الوقت بدأت المجلة تنتشر تدريجياً و يزداد عدد المحررين فأكتفى بعمل الفراش بعد أن أحضرنا عاملة نظافة تساعده بعد الظهر

أتذكر أول مرة خرجت فيها المجلة للنور .. أعطيته نسخة من أول عدد نصدره فظل يحتفظ بها بحرص داخل درج خاص فى المطبخ .. و رغم أنه لا يقرأ لكنه ظل يتطلع للصور بشغف .. يخرج المجلة فى أوقات فراغه و يقلب فى صفحاتها بحثاً عن الصور و يطالعها بتركيز و يسرح مع أفكاره .. بدأ يطلب نسخة من كل عدد نصدره ليطالع الصور .. لا أعلم ما سر هوايته الغريبة تلك و لكنه كان شغوفاً بها بشدة .. بعد ثلاث سنوات من عملى هنا

ترقيت و أصبحت كبير المحررين .. زادت أواصر الصداقة بينى و بين عم فتحي خاصة أنه كان يسهر معى أحياناً لأنجاز أعمالى المتأخرة .. و عندما أصاب أحياناً بالأرهاق من العمل .. يجلس ليسليني و يحكى لى قصص من حياته

ذات صباح أتذكره جيداً .. جاء يطرق على الباب كعادته .. كنت مشغولاً بكتابة مقال فلم أرفع عينى عن الأوراق .. ظل متريثاً أمامى دون أن يصدر عنه أى صوت حتى أنتهيت .. عندما رفعت عينى أبتسم بتردد .. ألقيت نظارتى و فركت عينى و أنا أسأله بهدوءعن سبب أنتظاره بهذا الشكل .. سكت قليلاً ثم أجابنى بخجل أنه يريدنى فى طلب شخصى .. توقعت أنه يرغب فى أقتراض بعض المال رغم أنه لم يفعلها من قبل .. أبتسمت لأشجعه على الكلام .. أطرق إلى الأرض .. تهدج صوته قليلاً و هو يردد :

- أريد منك معروفاً لن أنساه طوال عمرى

سكت قليلاً .. بلع ريقه بصعوبه .. تلعثم و هو يكمل بأبتسامة مرتبكة : أريدك أن تنشر صورتى فى الجريدة

تمالكت نفسى بصعوبة حتى لا أضحك .. لو رأيت تلك النظرة الطفولية على وجهه وقتها لضحكت .. ملامحه فى منتهى البراءة و الجد فى آن

واحد .. سألته برفق :

– لماذا تريد أن تنشر صورتك ؟

أجاب بعدة أجابات كلها تدل على السذاجة .. أخبرنى أنه يحب الصور و يحلم أن يرى و لو صورة صغيرة له فى المجلة حتى يريها لأصدقائه ، و يحتفظ بها بعد أن يتباهى بها أمامهم .. لم أشأ أن أصدمه بصعوبة الأمر .. الطريقة الوحيدة لأنشر صورة له هو بعد عمر طويل فى صفحة الوفيات ..رأيته ينظر نحوى و هو يتطلع بلهفة لردى .. تململت فى مقعدى .. فكرت فعلاً بجدية فى أمره .. رغم سهولة طلبه و لكن صعب أن أنشر له صورة فى أى قسم من أقسام الجريدة .. الصفحات الأولى مخصصة بالطبع للأحداث السياسية البعيد هو عنها تماماً و لا يرغب بالأقتراب منها .. صفحات المجتمع لا تهتم سوى بأخبار الفنانين و المشاهير .. أستبعدت صفحة الرياضة بالطبع فالرياضة الوحيدة التى يجيدها هى ركوب دراجته البسيطة للعمل صباحاً .. ربما فى قسم الحوادث .. و لكنه لم يرتكب أى جريمة تستحق سوى أنه دخن مرة واحدة فقط فى شبابه كما حكى لى تحت ضغط زملائه و أقلع بعدها .. لم أجد حلاً و أشفقت أن أرفض طلبه بشكل مباشر فأؤذى مشاعره .. وعدته أن أفكر فى الموضوع .. تهلل وجهه بسعادة و أنصرف و هو يكاد يطير فرحاً

و بالطبع صدر العدد التالى من المجلة و لم تظهر صورته فيه .. جاءنى

منكسراً .. أشفقت عليه .. لم أجد عذراً يمكن أن يقبله برضا دون أن أخيب أمله .. أضطررت أن أصارحه برفق و أوضح له صعوبة الموقف .. أخبرته بوضوح أنه لا بد من وجود سبب مقنع لنشر الصورة .. كأن يكون مشهوراً مثلاً .. أو صاحب قضية تهم الرأى العام .. أو حتى صاحب تجارب حياتية مميزة أستطيع نشرها ليستفيد منها القارئ .. عندما أنتهيت من كلامى معه سكت فتحى قليلاً .. فكر لثوان ثم أبتسم و هتف بتلقائية :

- أنشر قصة حياتى أذن

هذه المرة لم أتمالك نفسى فضحكت .. و يبدو أنه فسر ذلك على أنه أستحسان لفكرته .. فبدأ يتكلم عن أحداث من حياته الجوفاء و يستفيض فى رواية ما مر به .. أدركت وقتها أنه لا فائدة من محاولة أقناعه .. جلست على المقعد بأستسلام و أسندت رأسى على يدى أستمع بصبر لحكايته التى يرويها لى للمرة العاشرة

أنتابتنى فكرة وقتها .. لما لا أكتب قصة قصيرة أستلهم أحداثها من واقع حياته و أنشرها فى قسم الأدب .. على الأقل سيفرح بنشر قصة تحكى عنه و لن يعاود التفكير فى موضوع الصورة .. بدأت أنتبه أكثر معه و هو يحكى .. و لكن لخيبة أملى لم أجد أى شئ مميز يمكننى التوقف عنده .. حياة جوفاء .. مثال حى لحياة روتينية .. أرض مسطحة لا أنحناءات فيها و لا أرتفاعات .. أبوه كان ساعى بريد بسيط و توفيت أمه و هو صغير .. لم يتعلم

القراءة أو الكتابة .. عمل صبى بائع لفترة طويلة قبل أن يغلق المحل الذى يعمل فيه لوفاة صاحبه فأنتقل للعمل كنادل فى مقهى شعبى .. لم يعجبه العمل فتركه و تنقل فى عدة وظائف بسيطة قبل أن يستقر به المقام للعمل فى جريدتنا .. يقضى طوال فترة الصباح هنا و ينهى عمله مساءاً فيتوجه إلى المقهى ليقضى بعض الوقت مع شلة من جيرانه ثم يعود لمنزله المتواضع و ينام للصباح .. يسهر فقط قليلاً يوم الخميس على المقهى .. و أحياناً يزور قريبة له مسنه تسكن فى مدينة أخرى .. تلك هى حياته تقريباً بدون أختصار .. حياة تسير على قضبان ثابتة كقضبان السكة الحديد .. لم ينحرف يوماً أو يحيد عن الطريق .. يقطع نفس المحطات يومياً .. و ينتهى دائماً عند النقطة التى بدأ منها .. كيف يمكننى أن أضع حياة كتلك فى قصة أدبية مشوقة تثير القارئ .. قصته خالية من أى أحداث مثيرة و محبطة لأى كاتب يود صياغتها

قاطعت لصديقى : و لكن فى داخل كل منا قصة تستحق النشر .. هذا ما يردده الأدباء ..

هز صديقى رأسه ثم قال : كلام نظرى لا ينطبق على الكثير و منهم عم فتحى .. ماذا أكتب عنه .. يستيقظ صباحاً و يقضى اليوم فى العمل ثم يذهب لمنزله للنوم .. حتى أحلامه لم يكن له أحلام أو طموحات كبيرة .. إلا حلمه بالطبع بنشر صورته .. لم يحلم أن يتزوج أو يكون له أولاد لضيق ذات اليد

.. و طموحه لا يتعدى أن يحافظ على عمله كفراش .. ليس لـه مغـامرات .. أو حتى مشاريع خاصة يود تنفيذها .. من سيستمتع بقراءة الأحـداث كتلـك ..

على العموم وعدته بأعادة النظر فى الموضوع .. قررت أن أتركه عدة أيـام لعله ينسى الأمر و لكن مع مرور الأيـام زاد هوسـه .. عنـدما نـشرنا العـدد التالى و لم يجد صورتـه جاء ليعاتبنى .. لمحت نظرة أنكسار فى عينيه .. لم أره محبطاً من قبل بهذا الشكل .. و بعد صدور عدد آخر دخل المكتب يحمل القهوة بيد و بيده الأخرى يطبق علـى نـسخة مـن المجلـة .. بـبسط المجلـة أمامى و أشار إلى صورتان لأثنان يبدو من هيئتهمـا أنهمـا بـسطاء .. سـألنى بعتاب لماذا لم أنشر صورته مثلهما فلا يبدو عليهمـا أنهمـا مـن المـشاهير أو نجوم المجتمع .. تصفحت المجلة بهدوء .. الصورة الأولى لـشخص مـريض نشرنا ألتماس لوزير الصحة لعلاجه فى الخارج و معها صورتـه .. و الثـانى تعرض للنصب فنشرنا قصته حتى نحذر الناس و بالطبع نشرنا صور المقابلة معه بعد أن تطوع بذلك .. حاولت أن اوضح لـه الأمـر و لكـن لم يبـدو عليـه الأقتناع .. لو كان يجيد القراءة لطلبت منه أن يقرأ المجلة ليتاكد من كلامى بدلاً من أن ينصرف و نظرة الشك تلك تظهـر فـى عينيـه بوضـوح .. و رغـم مرور الأيام و تجاهلى له لم يفقد الأمل .. و عرفت لاحقاً أنه حاول مع عدد من الصحفيين هنا .. و لكنه قوبل بالأستهزاء منهم

مرت سنوات على مجلتنا .. تعرضنا للأغلاق و المصادرة عدة مرات .. و غادر عدد كبير من المحررين و حل محلهم عدد أكبر .. أنتشرنا و توسعنا .. جددنا ديكورات المكتب و غيرنا الأثاث .. أصدرنا المجلة فى البداية شهرياً ثم أسبوعياً .. كل شئ تغير إلا ألحاح عم فتحى .. لم ييأس و ظل يذكرنى بطلبه على فترات متباعدة .. أنتظر دوماً بأمل أن أحقق رجاءه رغم تجاهلى الدائم له الذى أستمر لسنوات .. حتى تفاجئنا ذات صباح بغيابه

لأول مرة من أثنتى عشر عاماً لا يحضر .. لم يغب يوماً من قبل .. أعتاد يومياً أن يكون أول من يصل لمقر المجلة و آخر من يغادر حتى أصبح جزءاً من المكان لا تألفه أعيننا بدونه .. و عندما تواصل غيابه لليوم الثانى أرسلنا مندوباً من المجلة للسؤال عنه .. عرفنا أنه مرض فجأة .. أصيب بألتهاب رئوى حاد و نقلوه للمستشفى .. لم يكن عم فتحى بالشخص قوى البنيان و لكنه لم يمرض قط .. و كأن الطبيعة أرادت أن تعوضه عن ضعف بنيانه بمناعة قوية ضد المرض .. و لكن مناعته أنهارت فجأة .. زاره بعض المحررين فى المستشفى و كنت أنوى مشاركتهم الزيارة و لكنى أضطررت للسفر لتغطية مؤتمر هام .. أحد الزملاء أتصل بى و أبلغنى أنه سأل عنى و كان يرغب فى رؤيتى فصممت على زيارته بعد أنتهاء المؤتمر .. و لكنه مات بعد عدة أيام .. لم يكن له أقارب هنا فتولت الجريدة كل شئ و دفن فى أحد مقابر الفقراء .. و لأن المصائب لا تأتى فرادى .. صودرت جريدتنا بعد

أن نشرنا تحقيقاً في قضية هامة رغم قرار النائب العام وقتها بحظر النشر في تلك القضية .. و عندما عاودنا النشر .. كان الوقت قد فات لنشر نعياً له .. مرت سنة الآن منذ وفاته و ترقيت حتى أصبحت رئيس التحرير .. و جئنا بساعي جديد ليحل مكان عم فتحي .. هذه هي حكايته كلها .. كما ترون .. لا أستحق أن أكتب قصة عنها أو تحقيقاً و أنشرها

سكت قليلاً .. سألته بدهشة : و لماذا ظننت إذن أنه هو الطارق ؟

أرتشف قليلاً من كوب القهوة أمامه .. قال كمن يتذكر شيئاً :

نسيت أن أقول لكم .. بعد عدة أيام من وفاة عم فتحي وقعت بضع حوادث غريبة في المجلة .. أناس تسمع صوت جلبة في المطبخ رغم أن لا أحد هناك .. أيضاً الفراش الجديد الذى عمل هنا أخبرنا أنه يلاحظ أصوات قادمة من المكاتب عندما يأتي في الصباح .. و كأن شخصاً ينظفها.. و عندما يتحقق من الأمر يجد المكاتب خالية .. و بواب العمارة يؤكد أنه يرى أحياناً الأنوار مضاءة لفترات متأخرة في المساء حيث أعتاد عم فتحي السهر مع بعض المحررين الذين يمكثون لأنجاز أعمالهم المتاخرة رغم أنه لم يعد أحد يفعل ذلك الآن .. و بدأت أسمع صوت طرق على الباب في نفس الأوقات المنتظمة التى كان يقدم عم فتحي فيها قهوتى المعتادة .. نفس طرقته المميزة على الباب .. كتلك التى سمعتموها .. و عندما أفتح الباب لا أجد أثر لأحد .. و بعض المحررين أيضاً حدث معهم نفس الشئ .. و بالذات القدامى

منهم .. و أستمرت هذه الطرقات من يومها حتى الآن .. الغريب أن عم فتحي كان يحتفظ ببضع أعداد من المجلة في درج خاص داخل المطبخ .. أعداد خاصة ممتلئة بالصور أكثر و منها العدد الأول للجريدة .. و لكنها أختفت كلها رغم أن الفراش الجديد رآها هناك أول يوم أستلم فيه العمل هنا .. و لكنها أختفت بعدها .. كما أن بعض الصور المعلقة على الجدران تحطمت أطارتها .. فلم نعد نعلق أى صور على جدران المكان

توقف صديقي عن الكلام لبرهة .. خيم علينا الصمت .. نظر فى ساعته قائلاً بسرعة : يبدو أن الوقت تأخر .. سأدعوكما للغذاء بمناسبة الترقية ..

نهض فخرجنا من مكتبه دون كلام .. كنت فى حالة صدمة مما سمعت .. سرنا فى الردهة الخالية تماماً .. يبدو أن معظم المحررين فى أستراحة غذاء أو أنهوا عملهم بالفعل فالمكان شبه خالى .. أقتربنا من المطبخ .. تسمرت فى مكانى عندما تناهى إلى سمعى صوت قادم من داخله .. نظرت لصديقي و لكنه أكمل طريقه بشكل طبيعى فسرت معه .. مع أقترابنا أزداد الصوت وضوحاً .. صوت مياه تغلي و كأن شخصاً يعد مشروباً و معها صوت تقليب صفحات .. أشار صديقي إلى كرسي بجوار المطبخ تماماً :

– هنا أعتاد أن يجلس عم فتحي ينتظر أشارة أحد من الموظفين .. و هنا المخزن ..

ظل صديقى يتكلم و نحن نعبر أمـام المطـبخ .. لم أنتبـه لأى مـن كلامـه لأنى كنت مشغولاً بمعرفة ما يدور داخل المطبخ .. بمجرد أن أصبحنا أمامه حتى ألتفتت ببطء لألقى نظرة سريعة بداخله .. لم يكن هناك أحد .. المكـان خاوى تماماً و الصوت توقف بمجردنـا أن عبرنـا أمامـه .. أقـشعر بـدنى .. بمجرد أن تجاوزنا مدخل المطبخ حتى عـاد الـصوت مـرة أخـرى بوضـوح .. سيطرت على نفسى بصعوبة .. سرت قشعريرة باردة فى جسدى رغماً عنـى .. سرحت قليلاً قبل أن أنتبه على صوت صديقى مكملاً كلامه :

كلما تذكرت عم فتحى شعرت بالشفقة نحوه .. حاولـت أن أكتـب عنـه عدة مرات و لكنى حتى الآن لم أجد أى شئ مميز فى حياته ..

ثم تنهد و هو يلوح بيديه بيأس قائلاً : ليتنـى أجـد أى شـئ مـثير فـى قصة حياته لأكتب عنه على الفور

بهجت

فى بداية الثمانينيات لم يكن هناك فى مدينتنا محل أشهر من محل بهجت .. ربما بسبب موقعه المتاز فى قلب المدينة التجارى أو بسبب ضخامة مساحته .. أعتدت أن أمر عليه عدة مرات فى اليوم الواحد أثناء ذهابى أو عودتى من المدرسة .. أتطلع بأعجاب إلى فاترينته المليئة بكل أشكال الحلوى .. لم أدخل المحل يوماً و لم أرى كثير من الزبائن يتوافدون عليه .. و لكنه يظل واحد من معالم مدينتنا الصغيرة حتى أن المنطقة المحيطة به أصبحت معروفة لدى الناس بأسم المحل .. عندما تمر أحد عربات النقل العام أمام المكان يكفى أن يشير أحد الركاب بأسم " بهجت " ليتوقف السائق هناك .. وعلى الرغم من أن المنطقة مليئة بمحلات أخرى من كل صنف و نوع .. و لكننا لم نعرف للمنطقة هناك أسماً آخرغيره

لم أرى أحد يعمل داخل المحل سوى صاحبه بهجت .. و لبهجت شخصية أكثر شهرة من محله نفسه .. رجل متوسط العمر طويل القامة ذو شعر خفيف بدأ يغزوه اللون الأبيض و عينان يشع منهما بريق ذكاء فطرى .. ورث أرض كبيرة عن أبيه فى مكان مميز فى قلب المدينة التجارى بالأضافة إلى مزرعة صغيرة .. سافر للعمل فى دولة عربية و عاد بعد عدة سنوات فبنى عمارة أنيقة على الأرض كانت مثار أعجاب الناس وقتها .. لم

يكن يحب قيود الوظيفة أو يحتاج إليها .. قرر أن يبدأ مشروعاً فأفتتح محل ضخم للحلويات أسفل منزله و أطلق عليه أسمه .. فى الواقع لم يكن بهجت يهتم بالربح عندما أفتتح مشروعه .. أيراد المزرعة بالأضافة إلى أيراد عمارته الجديدة و ثلاث محلات أخرى صغيرة أسفلها وفر له دخلاً محترماً لم يعد معه بحاجة إلى حسابات الربح و الخسارة .. و لكنه أفتتح المحل ليشغل وقته وعوضاً عن المكوث فى المنزل .. كان أول محل للحلويات الغربية فى مدينتنا التى لم تعتاد سوى الحلويات الشرقية المصنوعة محلياً .. و رغم نصائح أصدقائه و أقاربه بسذاجة أقامة محل كهذا فى مدينتنا ذات الطابع الريفى .. إلا أنه أصر على أستكمال المشروع قائلاً لهم ببساطة أنه لا يريد سوى أن يكون مختلفاً عن غيره ، و لا يسعى سوى لكل ما هو جديد و متميز .. وأفتتح بهجت مشروعه الجديد بالفعل وسط أحتفال و أحتفاء بسيط

فى البداية لم يحقق بهجت نجاحاً يذكر تماماً كما توقع له الكثيرون .. و لكن مع مرورالوقت بدأ المحل يجذب الزبائن .. أناس دفعهم الفضول لتجريب منتج جديد بعيد عن الحلوى التقليدية .. صبر بهجت طويلاً على حلمه .. تطلع برضا إلى عدد الزبائن الذى يزداد يوماً عن يوم و إن كان ما زال يسير بشكل بطئ .. مرت أسابيع و أشهر .. بعد ثلاث سنوات كاملة بدأ المحل يحقق ربحاً معقولاً بعد أن كان بالكاد يكفى مصاريفه .. كل من

كان يلوم بهجت على فكرته الغريبة بدأ يشيد بذكائـه و يتحـدث عـن بعـد نظره .. و لكن ما كاد بهجـت يلـتقط أنفاسـه و يحقـق ربحـاً حتـى تفـاجئ بأفتتاح محل منافس .. بمجـرد أن أنتـشرت الحلـوى الغربيـة بـين النـاس حتى قلده أحد كبار تجار المدينـة .. أفتـتح محـلاً آخـر فـى مكـان مميـز و بأسعار أقل .. ثم تبعه تاجر آخر بعده بعام فى مدينة صغيرة لا تتحمل كل هذه المنافسة

أبرز ما فى مدينتنا الـصغيرة أن النـاس هنـا تهـوى تقليـد كـل نـاجح .. تخشى من المغامرة و تهرب من الأفكار الجديدة و لكن بمجرد أن يغامر أحد و ينجح حتى يسعى الجميع لتقليده بلا قيود .. و هذا ما عانى منه بهجت

لم يكد يحصد نجاح تجربتـه التـى صـابر عليهـا طـويلاً حتـى أرهقتـه المنافسة الشرسة .. لعدة سنوات أخرى ظل بهجت كما هو يتجاهـل الوضـع الذى يزداد سوءاً .. حتى أبى الذى أعتاد أن يبتاع من عنـده بعـض الحلـوى فى المناسبات توقف بعد أن أكتـشف أن هنـاك محـلات أخـرى تبيـع نفـس البضاعة بسعر أقل .. علمت لاحقاً أن بهجت بدأ يخسر من ولديه الذى كان أحدهما صديقاً لى فى المدرسة بينما الآخر يصغرنا بعامين

فى آخر سنوات دراستى الأبتدائية مررت على المحل يوماً لأتفاجئ بـه مغلق .. لأول مرة منذ ست سـنوات يوصـد أبوابـه .. بعـدها بيومـان رأيـت بعض العمال يجهـزون المحـل .. سـألت صـديقى فـأخبرنى أن والـده قـرر

تجديد المحل .. مر شهر و نصف قبل أن يعـاد أفتتـاح المحـل ليتحـول إلى مجمع أستهلاكى ضخم .. لم يكن تجديداً كما توقعنا .. بهجت غير نـشاطه بالكامل

تحول محل الحلويات بالكامل ليصبح مجمع أستهلاكى ضخم .. كنا فى منتصف الثمانينيات و أعتاد الناس هنا الشراء من الدكاكين الصغيرة .. لأول مرة فى مدينتنا نرى كل تلك البضائع تجتمع تحت سقف واحد .. التجـول داخل المحل أصبح متعة فى حد ذاته فهنا تجد كل شئ .. وضح أن بهجـت صرف على محله كثيراً لتجديده بل و أضطر إلى توسيعه بعد أن أضاف إليه أحد المحلات الثلاثة الصغيرة بجواره و التى كان يقوم بتأجيرها .. كـسب بهجت الرهان و أثبت عبقريته مرة ثانية فـى أختيـار مـشاريعه .. عنـدما كنت أجئ إلى هنا مع أبى لم أكن أرى بهجت إلا و هو يتنقل من مكان لآخر يشرف على كل شئ بنفسه و أبتسامة ثقـة تعلـو وجهـه .. مـرت شـهور و بهجت يحصد نجاح مشروعه .. بعدها عرفنا بالمصادفة أن تاجر كبير أفتتح مجمع أستهلاكى جديد فى طرف المدينة .. تبعه ثالث و رابع داخل المدينـة !

لم يمر وقت طويل بعد نجاح مشروع بهجت الثانى حتى تم تقليده فكان لـدينا أربـع مجمعـات أستهلاكية ضـخمة تزحـف علـى مـدينتنا التـى لا تستوعب كل هـذا العـدد و كـل ذلـك خـلال سنوات قليلـة فقـط .. سـحبت

المجمعات الجديدة البساط قليلاً من تحت أرجل بهجت خاصة أن أصحابها من التجار الذين يعرفون جيداً كيفية الحصول على البضائع بأرخص الأسعار بينما بهجت برغم أفكاره العظيمة لم يكن بتاجر .. بدأ توافد الزبائن عليه يقل تدريجياً و بدأ يقلل من عماله .. مشروعه الثانى صمد لمدة ست سنوات كاملة أيضاً قبل أن يحقق خسائر دفعت بهجت للتفكير فى نشاط آخر مختلف

و عاد العمال مرة أخرى .. و بدأت أعمال الأحلال و التجديد التى طالت هذه المرة لشهران .. قبل أن يخرج المحل بشكل جديد تماماً لم تعتاده مدينتنا المحافظة .. محل فيديو جيم للأطفال

كنا فى بداية التسعينيات يوم ولادة المحل الجديد الذى لاقى أقبالاً شديداً منا حتى أنه فى أوقات الاعياد و المناسبات كان علينا أن نذهب مبكراً و نحجز قبلها بساعات لنضمن الحصول على فرصة للعب .. أمتلأ المحل بأحدث شاشات الفيديو جيم و لم نعد تسمع هنا سوى صوت طلقات الرصاص أو فرملة السيارات أو تقارع الأسلحة فى الألعاب الوهمية المختلفة .. بالطبع هاجمه الكثيرون بداعى أنه يفسد أخلاق الأطفال و لكننا كنا نستمتع جداً بوقتنا هنا .. بهجت نفسه كان يغلق محله فى الفترة الصباحية بعد أن حرص عدد كبير من الطلاب على الهروب من مدارسهم و قضاء الوقت فى محله .. واظبت على المجئ هنا بشكل دورى فى نهاية كل

أسبوع مع أصدقائى بعد أن أعتدت أدخار مصروفى لثلاثة أيام كاملة قبلها حتى أتمكن من اللعب .. كان ذلك قبل أن يفتتح محل مشابه قريب من المنطقة التى نسكن فيها ففضلنا الذهاب إليه .. هذه المرة و مع بدء أنطلاقنا فى عصر السرعة لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لسرقة فكرة مشروع بهجت الجديد .. بعد سنتان أنتشرت محلات الفيديو جيم الصغيرة فى المدينة الضئيلة و لم يلبث بهجت أن قرر أغلاق محله كالعادة

أنتظرت – و معى الكثير من الفضوليين و التجار – مشروع بهجت الجديد .. فكرته القادمة بعد أن أثبت فى كل مرة قدرته على قراءة السوق و الخروج بأفكار مبتكرة غير تقليدية .. لم يحتاج المحل هذه المرة لتغيير كبير .. بقيت ديكورات المحل كما هى و لم تتغير سوى اللافتة لتعلن عن ميلاد مكتب بهجت للكتابة و الطباعة بالكمبيوتر .. كنا قد أقتربنا من منتصف التسعينيات و ما زالت آلات الطباعة التقليدية منتشرة فى المدينة العتيقة .. أجتذب المكتب العديد من طلاب الجامعات بالأضافة إلى أصحاب الأعمال و الباحثين .. المكتب الوحيد الذى تجتمع فيه كل الخدمات الحديثة فى مكان واحد .. فاكس و كمبيوتر و آلات طباعة حديثة و هاتف دولى أيضاً .. بأمكان أى عميل أن يكتب و يطبع هنا أى أوراق يريدها بسرعة .. وظف بهجت عدداً من السكرتيرات أمتزن بالكتابة بسرعة على الكمبيوتر .. بالأضافة إلى أنشاء قسم خاص داخل المكتب للدعاية و الأعلان

بأحـدث الوسـائل .. أشـترى أحـدث ماكينـات نـسخ الأوراق و أفـضل آلات الطباعة .. فى الانتخابات التى أقيمت بعدها بسنة كانت معظـم اللافتـات و أوراق الدعاية المبهرة التى أغرقت المدينة ممهورة بأسم مكتبـه .. لفـترة لم يستطع أحد تقليد مشروع بهجت خاصة من التجار الكبار الذين كان فهمهم للتكنولوجيا الحديثة محـدوداً إلى أبعـد حـد .. ظننـا أن هـذا سيكون آخـر مشاريع بهجت و يبدو أنه هـو نفسه أطمـئن لـنفس الخـاطر فـصرف علـى مكتبه بسخاء .. إلا أن أحد شباب الجامعة المتحمس أعجب بالفكرة .. أتفق مع بعض أصـدقائه فقـاموا بتـأجير مكتبـة كـبيرة أمـام الجامعـة مباشـرة و أشتروا عدداً من أجهـزة الكمبيوتر و عدداً مـن الطابعـات بالتقـسيط و بـدءوا بالعمل .. خبرتهم فى التعامل مع التكنولوجيا الحديثة فاقت خبرة بهجت بالتأكيد و لم يلبث أن أزدهر عملهم .. بالطبع أجتذب المحل الجديد طلاب الجامعة الذين فضلوه فى النهاية نظراً لقربه من الجامعـة ، و بعـد المسافة بين وسط البلد حيث محل بهجت و بين كلياتهم .. ثم انتقلت الفكرة لشاب آخر فأفتتح مكتبة آخرى .. كان يمكن لبهجت أن يصمد أمام المنافـسة التـى ما زالت فى بدايتها و لكنه فضل أن يستـسلم بـشكل سـريع وغـير متوقـع و أغلق محله بعد أن باع الأجهزة كلها

تجاوزنا منتصف التسعينيات و أقتربنا مـن نهايـة الألفيـة .. ألتحقـت بالجامعة و بهجت يجدد محلـه للمـرة الخامـسة .. هـذه المـرة لاحظنـا أن

الفاترينات رجعت لتحتل واجهة المحل .. أيقن الناس أن بهجت سيعود لبيع الحلوى .. نشاطه الأول .. و لكنه فاجئ الناس بعمل أفتتاح ضخم ليعلن أقامة أول محل للهواتف المتحركة .. أتهمه البعض بالجنون و البعض كان رحيماً معه فأكتفى بأتهامه بالسذاجة .. عدد من يحملون الهواتف المتحركة في بلدنا لم يكن يتعدى أصابع اليدين .. سمعنا كثيراً عن تلك الأجهزة دون أن نراها أو نحلم بأمتلاكها .. فى مدينتنا المعدمة من يقدر على شراء هذا الجهاز باهظ الثمن أو تحمل قيمة مكالماته .. نصف الناس هنا لا يحلمون سوى بأمتلاك هاتف أرضى و ربما أنتظروا لشهور وقتها في سبيل تحقيق ذلك .. تحمل بهجت لمدة عامين تقريع الناس و الجلوس داخل محله الخاوى تقريباً من الزبائن إلا من قلة معدودة .. تحمل أن يجلس أحياناً يوماً كاملاً دون أن يطالعه وجه زبون حتى بدأت التكنولوجيا الجديدة تغزو العقول قبل السوق .. أنتشر الموبايل تدريجياً فى أيدى الناس بعد عدة عروض من الشركات المتنافسة لتخفيض سعره و أصبح للمحل زبائن .. المحل الوحيد الذى تباع فيه الأجهزة و كروت الشحن و كافة مستلزمات الأختراع العجيب .. بل و حتى عمل صيانة بعد أن تعلم بهجت كيفية صيانة هذا الجهاز مستغلاً فترة فراغ محله من الزبائن .. و لفترة ليست بالقصيرة حقق بهجت أرباحاً لم يحققها أى مشروع له من قبل ، و ظل محتكراً للسوق الجديدة لفترة لا بأس بها قبل أن يقبل على المجال

بعض الشباب المغامر و بعض التجار الكبار الذين أستطاعوا بـذكاء الحـصول على توكيلات رسمية من شركات المحمول .. أنتشرت المحلات الصغيرة و الكبيرة بعدها كالوباء فى كل أرجاء المدينة و قـل عـدد زبائنـه .. و قبـل أن يبدأ بالخسارة قام بهجت بتصفية محله مجدداً

فى بدايات القرن الجديد و مع أولى سنوات الألفية تخرجت من الجامعة و أستلمت أول عمل لى وتحول نشاط بهجت من الهواتف المتحركة إلى بيع و شراء أجهزة الكمبيوتر .. لم أكن أحلم بأمتلاك جهاز كمبيوتر وقتهـا نظـراً لثمنه الغالى و لكن بعد تخرجي بثلاث سنوات أصبح الجهاز فى كل بيت .. تجمع لدى مبلغ من المال فقررت شراء جهاز و كنت قد عزمت علـى الـشراء من بهجت .. و لكن أصدقائى دلونى على محل أفتتح بعـده يبيـع الأجهـزة بسعر أرخص فأشتريت منه

سافرت للعاصمة للعمل و لم أكن أعود إلا فى أجـازات قـصيرة و لكنهـا كانت كافية لأتابع محل بهجت يتحول إلى مقهـى أنترنـت ثـم إلى صـيدلية أعشاب و أخيراً إلى توكيل أجهـزة تكييـف و فـى كـل مـرة يواجـه بهجـت المتجدد دائماً و الذى يضيق من المنافسة نفس المصير .. يبدأ الفكرة و الشرارة الأولى فى مدينتنا فتنتشر و ينفذها غيره بـشكل أفـضل بعـد أن يتحمـل هـو خسائر المخاطرة

مع نهاية العقد الأول من الألفية حصلت على عقد عمل فـى أحـد الـدول

العربية .. سافرت و شغلتنى دوامة الغربة قبل أن أقرر العودة أنا و زوجتى نهائياً لأستقر فى بلدى بعدها بخمس سنوات .. ذهبت إلى مدينتى و سرت فى شوارعها أتفقد كل ركن فيها و أستعيد ذكرياتى .. قابلت بعض أصدقائى و منهم محمود أبن بهجت الأكبر .. مررنا على محل بهجت الذى كان مغلقاً و قبل أن أسأل محمود عن سر أغلاقه وقع بصرى على لافتة كبيرة مكتوب عليها " الأفتتاح قريباً " فكتمت فضولى منتظراً معرفة أخبار المشروع الجديد فى حينه

وضعت زوجتى طفلنا الأول بعد عودتنا بشهر .. شغلنى قدومه عن الدنيا .. زارنى محمود و تلقيت تهنئته و لكنى نسيت أن أسأله عن مشروع والده .. ذهبت بعدها بعدة أيام لشراء بعض الأغراض من وسط البلد فطالعنى المحل بثوبه الجديد .. لم أصدق .. كان هذا آخر ما أتوقعه .. أعترف أنى توقعت شئ مختلف .. مجال جديد يغزوه بهجت .. أن يبهرنا بفكرة مبتكرة كالعادة .. لكنى تفاجئت بالمنظر .. مجرد مكتبة عادية لبيع الكتب .. أرفف ممتلئة بكتب حديثة و مجلدات ضخمة و كتب أطفال بالأضافة إلى ركن خاص شغل نصف مساحة المحل تقريباً لبيع الكتب المستعملة .. أتذكر أنه كان لدينا فى المدينة قديماً عدد من المكتبات التقليدية مثلها لبيع الكتب و لكنها أغلقت أبوابها من فترة ليست بالقصيرة .. و أصبحت الكتب الآن تباع على الأرصفة .. رأيت بهجت بعد أن تعدى عمره

الستين و هو يجلس بهدوء خلف مكتب بسيط تعلوه بعض الكتب يطالع واحد منها .. عندما قابلت محمود بعد عدة أيام سألته عن سر التغيير الجديد .. سرد لى بخيبة أمل كيف حاول الكثيرون أقناع والده بالعدول عن فكرة المشروع .. بل هاجمه البعض و من بينهم ولديه .. حاولوا أقناعه كثيراً بمدى حماقة الفكرة .. واجهوه بكل الحجج المنطقية .. " تبيع كتب لناس مش لاقيه تاكل " .. " مين اللى بيقرأ دلوقتى فى الزمن ده ، حد عنده وقت للقراءه " .. " أقل كتاب جديد تمنه يوكل أسرة فقيرة يومين بحالهم .. و بعدين الناس دلوقتى بتقدر تنزل من النت أى كتاب و تقراه ببلاش .. مين عنده أستعداد يرمى فلوسه فى شوية ورق " .. " حتى المكتبات القليلة اللى كانت موجودة هنا قفلت من زمان .. و الكتب بتتباع على الأرصفة دلوقتى و مش لاقية اللى يشتريها"

عرفت أنه أستمع بصبر إلى معظم تلك التعليقات و لكنه أصر على موقفه .. نفذ فكرته و لم يتراجع دون أن يفهم أحد سر تمسكه بها مما دفع البعض للظن أنه أصابه الخرف بسبب سنه

مرت عشر سنوات .. الآن وصل أبنى الأكبر إلى نهاية مرحلته الأبتدائية .. و أنجبت طفلاً آخر .. بدأ الشيب يغزو رأسى و لم يغير بهجت مشروعه .. أطول مدة لبثها مشروع له .. ما زال محل الكتب كما هو .. المحل الوحيد فى مدينتنا الصغيرة .. عندما تمر عليه ترى رجلاً عجوزاً

تعدى السبعين من عمره .. غزا الشيب ما تبقى من شعره .. يرتدى نظارة طبية ذات عدسات سميكة و لكنه ما زال محتفظاً بحيويته .. يجلس بهدوء يومياً أمام أرفف الكتب داخل مكتبته ترتسم على وجهه أبتسامة رضا لا تخطئها العين .. أعتقد أن بهجت أثبت للمرة الأخيرة بعد نظره .. مرت أكثر من عشر سنوات على أفتتاح المكتبة و رغم مرور كل تلك المدة لم يحاول أحد تقليده أو أفتتاح مشروع مشابه له .. ولا أتوقع أن يقلده أحد مستقبلاً .. بضاعته الراكدة عند الناس لا تشجع أحداً على الخوض فى مخاطرة مشابهة .. و برغم أرباحه شبه المعدومة و زبائنه المعدودين الذين يتناقصون سنوياً .. لكن الأمر المؤكد أن بهجت يشعر بالرضا ، و لأول مرة طوال حياته يفتتح مشروعاً لا يزاحمه فيه أحد .. مشروع لم يعد يخشى معه أخيراً من أى تقليد أو منافسة محتملة فى المستقبل

سيد النصاب [1]

جلست مع صديقى على المقهى نتبادل الحديث .. لم أره من فترة نظراً لسفرى للخارج فطالت جلستنا .. تبادلنا المزاح و لم أسلم من ثرثرته المعتادة قبل أن يتوقف فجأة عن الكلام .. لاحظت أنه ينظر بأهتمام إلى نقطة ما خلف ظهرى .. ألتفت فوقعت عيناى على رجل دخل للمقهى لتوه .. رجل فى الخمسينات من عمره يرتدى ثياب فاخرة جلس غير بعيداً عنا مع صديق ينتظره و طلب شيشة دخنها بهدوء بمجرد أن جاء بها النادل .. لم يكن فى شكله ما يثير الريبة .. ألتفت لصديقى قائلاً : يبدو أنك تعرفه جيداً

أجابنى بسرعة : نعم .. سيد النصاب .. و من لا يعرفه

سألته مازحاً : سيد النصاب .. و هل هذا لقب أم أسم لعائلته؟

أجابنى بجد : بل لقبه .. نصب بالفعل على كثير من الناس هنا

تملكتنى الدهشة .. سألته بتعجب : لما لم يلقوا القبض عليه أذن؟

تنهد قائلاً : ربما لأنه لم ينصب على أحد كما تتخيل

قبل أن أعلق على هذا اللغز قاطعنى صديقى مكملاً كلامه : لو سمعت حكايته لفهمت

---

[1] القصة مبنية على أحداث حقيقية

لم يوضح الأمر .. تملكنى الفضول فسألته : و ما هى حكايته ؟

سكت قليلاً .. ثم أبتسم قائلاً : حسناً .. سأحكيها لك و لكن لا تواصل النظر خلفك تجاهه بهذا الشكل المثير للريبة

أعتدلت فى مكانى .. أرتشف صديقى من كوب القهوة الموضوع أمامه .. قبل أن يحكى بنبرة هادئة و بصوت تعمد أن لا يكون عالياً :

سيد شخصية عجيبة .. صحيح أنه نصب على كثير من الناس .. و لكنه لم يستولى على نقود أحد .. تلاعب بالقانون و لكن لم يستطع رجال القانون توجيه أى أتهام له .. يمكنك أن تطلق عليه نصاباً .. و لكن أحذر أن يسمعك و إلا قاتلك مستميتاً على شرفه الذى لا يقبل أن يمسه أى أحد

سيد لم يكن مخادعاً .. لم يتورط من قبل فى أى أمور تسئ لسمعته .. و رغم تمتعه بذكاء غير عادى و قدرة هائلة على الأقناع و لكنه لم يستغلها يوماً فى خداع أى شخص .. لم يكن ضميره يسمح له بذلك .. و لكن عندما حاصرته أزمة خانقة .. و أضطرته الظروف للنصب .. قام بالأمر ببراعة يحسد عليها

سيد كان يحلم دوماً بالثراء .. أمتلك العديد من الأفكار الجيدة حقاً التى فشل فى تنفيذها نظراً لقلة موارده .. قبل الأزمة كان موظفاً مرموقاً فى الخارجية يتمتع بسمعة طيبة .. شخصية مرحة يكتسب علاقات جديدة كل

يوم و يعرض خدماته على الجميع و لا يتأخر عن مساعدة أحد .. نجح في تكوين دائرة علاقات قوية و ساعد كل من يلجأ إليه .. لم يكن يتقاضى مقابل في سبيل خدماته .. مما أتاح له شهرة واسعة في محيط مدينته .. تقاعد من وظيفته مبكراً بعد أن عرض عليه صاحب أحد شركات المقاولات الخاصة وظيفة معه براتب مغرى بعد أن أعجب بذكائه .. لم يفكر كثيراً .. عمل معه لمدة عامان قبل أن تفلس الشركة .. خرج خالى الوفاض و لكن بخبرة جيدة في السوق و أحلام كبيرة في رأسه .. لم يستطع العودة إلى وظيفته القديمة التي لم تعد ترضى طموحه .. و لم يبحث عن وظيفة جديدة لن يجدها بعد أن تخطى الخمسين .. ظل فترة بلا عمل و لكنه لم يتوقف عن دراسة السوق و متابعة أحواله .. عندما حاصرته الديون .. و أوشك بيته القديم على الأنهيار .. لم يجد بداً من تنفيذ فكرة طالما راودته .. فكرة خطط لها طويلاً لتنقله إلى عالم الثراء

أنشئ شركة صغيرة لألحاق العمالة بالخارج مستغلاً شهرته .. بدأ يقبل كل الطلبات دون طلب نقود من أي عميل .. أستغل صلاته السابقة و نجح في توفير فرص عمل بالخارج لبعض من عملائه بالفعل .. مما زاد من شهرة مكتبه .. لم تمر سوى أسابيع قليلة حتى أعلن أنه يريد عمال من جميع التخصصات للعمل في شركة مقاولات كبرى داخل دولة خليجية برواتب مجزية .. توافد على مكتبه الكثيرون .. كان يقابل كل راغب في السفر

منهم بنفسه .. عمال نجارة .. سباكين .. سائقين .. عمال كهرباء .. نقاشين . وعد الجميع بنفس الشئ .. عقد عمل مغرى براتب يسيل له اللعاب فى دولة عربية غنية لشركة مقاولات كبيرة و لكنها ما زالت تحت التأسيس .. صاحبها خليجي و لديه شركة مقاولات عملاقة تمتلك فروعاً فى كل البلاد العربية و منها فرع هنا .. وعدهم بتوفير العقود خلال أشهر بسيطة بمجرد أنتهاء أجراءات التأسيس للشركة الجديدة .. أوهم الجميع أن الفرص محدودة فى حين أن أعداد المتقدمين كبيرة .. طلب من كل عامل دفع جزء من ثمن العقد مقدماً .. و الأولوية لمن يدفع أولاً .. لم يشكك أحد فى كلامه .. تاريخه معروف و نزاهته ليست محل جدل .. دفع كثير من العمال .. و أعتذر البعض .. و لكى يزيل أى شبهة شك تجاهه من قلوب عملاءه .. وقع أيصالات أمانة مقابل كل مبلغ أستلمه

لا يعلم أحد كم جمع تحديداً .. و لكنه بالتأكيد مبلغ كبير .. باع بيته القديم الآيل للسقوط و كل ممتلكاته قبلها بعدة أسابيع .. و دفع مقدم لقطعة أرض كبيرة فى مكان مميز كان يضعها نصب عينيه من فترة ثم أستكمل شراء الأرض و سدد باقى ثمنها بعد أن حصل على نقود عملائه .. و طبعاً تم كل هذا فى الخفاء .. قدم بعدها مباشرة على قرض من بنك كبير يعمل به أحد أقاربه كعضو منتدب .. تمت الموافقة على القرض سريعاً بضمان الأرض التى تعلو قيمتها يومياً .. و أستغل هو فترة أنتهاء أجراءات القرض فى

الأتفاق مع أحد المكاتب الهندسية لتصميم برج أدارى ضخم .. و أستخراج الرخص اللازمة

هززت رأسى و قاطعت صديقى قائلاً : فهمت .. أستغل بجشع أحلام الشباب و العمال البسطاء فى السفر للخارج لتوفير حياة أفضل لهم و لأسرهم ، و جمع منهم النقود ثم ماطلهم .. بنى البرج و باع وحداته ثم صرف لكل عامل ما دفعه و أعتذر لهم

أبتسم صديقى قائلاً : لا .. ما حدث أعجب بكثير

كان يمكن أن يتوقف عند هذا الحد .. و لكن الأغرب هو ما حدث لاحقاً .. أتصل بكل العمال و حدد موعد للقائهم فى مكتبه .. فى اليوم المحدد خرج إليهم .. تكلم بهدوء و ثقة عن الكفيل الذى بصدد القيام بمشروع جديد و لكن هذه المرة داخل البلاد .. مبنى أدارى ضخم تتولاه فرع شركته هنا .. أوهمهم أن الكفيل طلب منه الأتفاق معهم على العمل فى مشروعه الجديد هنا أولاً .. مجرد فترة أختبار و فرصة عملية للكفيل للحكم على كفاءة كل عامل قبل سفره للخارج .. فشركاته تتمتع بسمعة طيبة و لا تقبل إلا كل عامل متميز .. و فى النهاية من سينجح فى الأختبار يسافر فوراً .. و من يفشل يعيد إليه نقوده فى الحال .. أبلغهم أنه بالطبع لن يتم العمل بدون مقابل .. بل على العكس سيحصل كل عامل على أجر أكبر من أجره المعتاد طوال فترة العمل فى المشروع الجديد .. و ربما يكسب ضعف أجره .. و عند

الأنتهاء من كلامه أبلغهم أنه ينتظر الرد سريعاً

لم يشكك أحد في كلامه .. تحمس البعض فوراً .. فى النهاية لن يخسر أحد فسيعملون براتب كبير .. أكبر مما أعتادوا عليه .. و فرصة لكل عامل لأظهار مدى براعته للكفيل أملاً فى أقتناص فرصة السفر .. أنتقل الحماس تدريجياً لباقى العمال أملاً فى أثبات كفاءتهم و الحصول على العقد الذى يترجم كل أحلامهم .. و لم ينسحب أى عامل .. ربما لأن أنسحاب أحد معناه أعتراف ضمنى أمام الجميع بعدم كفاءته و خوفه من خوض الأختبار .. تم الأمر كما توقع بعد أن لعب بذكاء على الوتر الحساس .. وتر أذكاء أحلامهم البسيطة .. و لم يضيع هو وقته فواصل أستخراج التصاريح اللازمة بالطرق المباشرة و غير المباشرة .. و وفر كل المعدات اللازمة لمشروعه .. و أتفق قبلها مع الشركة المنفذة على كتمان هوية المالك

و بدأ العمل .. و العمال يبذلون أقصى طاقاتهم .. و يتقاضون أجرهم كاملاً مضاعفاً أحياناً .. و كل عامل يؤدى بحماس كبير و يظهر كل أمكانياته .. وأنتهى الحفر و صب الأساسات فى وقت قياسى .. و بعد شهرين بدأ برج كبير فى الظهور للحياة .. و أحضر سيد عمالاً أكثر .. و وضع كل عامل خبرته و علمه و هو يمنى نفسه بالعقد المغرى .. حتى فى أوقات الراحة كانوا يتكلمون عن حلم السفر و العقد المنتظر .. لم يتأخر عامل يوماً أو يتقاعس فى أداء مهامه .. و أظهروا أخلاصاً لم يظهروه طوال

عمرهم .. و خصوصاً أمام المهندس المشرف على المشروع عندما أعتقدوا أنه هو من يراقبهم و يحكم عليهم .. و زاد من حماسهم ظهور سيد في موقع العمل يوماً بصحبة رجل مسن وقور يرتدى زياً خليجياً و يستقل سيارة فارهة .. و تهامسوا فيما بينهم أنه الكفيل .. و زادت أحلامهم برؤيته

شهور و العمل يستمر ليلاً و نهاراً بلا توقف .. و أرتفع البرج شامخاً يبهر الأنظار .. و بدأت رحلة التشطيب و أنتظر الجميع بفارغ الصبر أنتهاء العمل للحصول على العقود .. ثلاث عمال فقط طوال فترة البناء أضطرتهم ظروفهم الخاصة للتراجع عن فكرة السفر .. و دفع سيد لكل منهم نقوده في الحال بدون مماطلة .. مما طمأن الجميع على نزاهته

و لأن سيد أجاد أختيار موقع برجه في مكان مميز في قلب المدينة .. و لأن البناء كان حقاً تحفة معمارية أبدع فيها كل من عمل في بنائه .. فبمجرد أن أعلن عن بيع وحداته حتي تسابق الكثيرون للشراء بالرغم من الأسعار الكبيرة التى فرضها .. و بيعت كل وحدات البرج بالكامل في وقت قصير

و حدث طبعاً ما هو متوقع .. أجتمع بالعمال و أخبرهم أن الكفيل يمر بأزمة مالية و أنه قرر تأجيل أنشاء فرع الشركة الجديد .. أبلغهم بأسفه لأنتهاء الأمور على هذا الحد غير المتوقع .. و أسف الكفيل لأضطراره لألغاء كافة أجراءات التعاقد معهم و التى كان بدأها بالفعل نظراً للظروف الطارئة التى يمر بها و تخرج عن أرادته .. و منح كل عامل مقدم عقده مع وعد

خاص بمواصلة سعيه لأيجاد عقود بديلة لهم

وجدت نفسى أسأل صديقى بدهشة : و كيف لم يثور العمال ضده بعد علمهم بحقيقته ؟

أجابنى بسرعة : لم يكونوا على علم وقتها أنه صاحب البرج .. أخفى الأمر عن الجميع حتى عن زوجته و أبناؤه ..

سألته : و النيابة .. قلت لى أنهم لم يجدوا دليلاً ضده

قال بأسف : أجراءاته كلها كانت قانونية .. عندما أفتضح أمره بعد عدة أشهر بأنه هو صاحب البرج تقدم بعض العمال ببلاغ ضده .. و لكن لم يكن هناك ثغرة لأدانته .. أوراق مكتبه لألحاق العمالة بالخارج كانت سليمة .. النقود التى أستلمها من العمال ردها إليهم دون نقص .. و الأيصالات التى كتبها على نفسه بالطبع أستردها .. حتى الأرض أثبت أنه أشتراها قبل الحصول على نقود العمال و هذا هو المهم لأنه نفى عن نفسه أستغلاله لهذه النقود فى أغراض شخصية .. و البناء تم بقرض البنك أى أنه لم يستخدم نقود عملائه فى مشاريع خاصة يتربح منها

صحت بدهشة : و خداعهم له بأنه ليس صاحب البرج الذى يشيد

أجاب بهدوء : لا يوجد نص فى القانون يجبرأى شخص على أعلان ممتلكاته لأحد .. إلا لجهات قانونية محددة .. و بالتالى أخفاؤة الأمر عن

العمال ليس بجريمة يحاسب عليها .. كما أن العمال أعترفوا أنهـم حـصلوا على أجورهم كاملة ، بل و أكثر منها طوال فترة البناء .. أى أنه لم يـستولى حقوق أى أحد .. و الأدهى أنه أثبت أنه وفر بالفعل لعدد من العمـال عقـود عمل لاحقة .. و هو ما تبين صحته و بالتالى نفى عن نفسه نية النـصب .. و لا تنسى أن الخلاف دب بين العمال أنفسهم

سألته : كيف ؟

أجاب : أستطاع أن يسوى أموره جيداً معهم .. قلت لك وفر لاحقاً لعـدد منهم بالفعل عقود عمل .. ليست مغرية و لكنهم قبلوها .. و منهم من أعطاه بعـض المـال للتنـازل و تغـيير أقوالـه .. و الـبعض لم يـذهب أصـلاً و نـسى الموضوع .. و كما قلت لك .. الأهم فى الموضوع أنه لم يستولى على نقـود أحـد .. حصل فقط على مخالفة لطلبه من العمـال مقـدم عقـود قبـل تـوفير فـرص العمل فالقانون يحرم على مكاتب السفر تحصيل أى نقود من أى عميـل قبـل توفير العقد .. و هى مخالفة أدارية .. و لا تهمه لأنه أغلـق المكتـب نهائيـاً بعدها بفترة .. على العموم هذا ما حدث من سنوات طويلة .. الآن أصبح من كبار رجال الأعمال فى مدينتنا هنا .. و مشاريعه تتوسع يوماً عن آخـر .. و لم يعد للنصب أبداً .. ونسى كثير من الناس بالفعل حكايته .. إلا الـبعض و منهم أنا

ألتفت و حدقت فى الرجل بغضب .. ضحك صديقى قائلاً : لا تنظر إليه

هكذا .. من يدرى .. ربما فى يوم من الأيام بعد عودتك من الخارج تعمل فى أحد شركاته .. أسمع أنه يمنح مرتبات جيدة .. و يشجع الشباب و يؤمن بهم و يمنح مزايا عديدة لمن يعمل معه صعب أن تجدها فى أى مكان آخر.. و لكن أياك وقتها أن تذكره بماضيه

ضحكنا و أنا ألقى نظرة أخيرة إلى الرجل الجالس خلفى يدخن بهدوء

الفهرس



انتحار فاشل

قالوا عنه أنه مهمل .. خامل .. كسول .. دوت تلك الكلمات كثيراً فى أذنه دون أن ينكرها .. طلقات أصابت سمعته المهتزة و أتهامات وجهها له الجميع لم يتبرأ منها .. يعلم أنه يمتلك كل تلك الصفات و أكثر .. صفات نمت بداخله من صغره لم يدرك قسوتها إلا متأخراً .. أمه الوحيدة التى ساندته فأقنعت نفسها و أقنعته أنه سوء الحظ .. و لكن ..

لعل الحظ برئ من دمه ..

رقم الإيداع: 11998 - الترقيم الدولى: 978-977-810-007-9

كيان كورب
دار ليلى